



ملامح وإضاءات



تأليف
محمد محمد أبو موسى
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف




ملامح وإضاءات


بسم الله الرحمن الرحيم







تأليف

محمد محمد أبو موسى

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف





مجلس حكماء المسلمين
Muslim Council of Elders

الإمارات العربية المتحدة
ص.ب ٧٦٩٥٦٤ أبوظبي
هاتف: 777 73 30 2 971+
فاكس: 054 12 44 2 971+
البريد الإلكتروني:
info@muslim-elders.com
الموقع الإلكتروني:
www@muslim-elders.com

فِهرست المكاتب العامة
لدور الكُتُب والوثائق:
أبوموسى، محمد محمد
ملامح وإضاءات
ط -1 الحكماء للنشر،
1441هـ/ 2020م.
ص ؛ 11 × 18 سم.
عدد الصفحات: 120
1 - الفكر الإسلامي
2 - التراث الإسلامي
3 - اللغه والأدب
4 - العنوان

الطبعة الأولى
1441هـ/ 2020م.

تصميم الغلاف: .Media Pictures Adv
وائل حسن - هاتف: 1113354001 20+
البريد الإلكتروني:
wael.hasan86@gmail.com

الصَّفُّ الطِّباعِيُّ والمراجَعةُ:
حسام صلاح الضرغامي
عاصم غريب

مكتبة الحكماء التراث الإسلامي
مشيخة الأزهر الشريف

الفهرس الإجمالي

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ٧

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ ٢٣

الاختلاف المحمود ٤١

الشيخ أحمد الشرباصي: رجل مضى ومثل مستمر ٥٥

معذرة إليك يا شيخ الأصحاب ٧٧

التراث حركة تأمل وإبداع ٨٩

قراءة في مقدِّمات كتب القدماء ١٠١



﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾

مِن أعظم نِعَم الله التي أنعَمَها علينا هي تيسيرُه القرآنَ العظيمَ للذِّكر، فالكلُّ مُطيقٌ لقراءته، حتى الأُمِّيُّون الذين لا يَقرءون الكِتابَ يَحفظُون من سُور القرآن ما تتمُّ به عبادتُهم، وقد غرَسَ اللهُ سبحانه محبَّةَ كلامه في قلوب عباده، تَراهم يُرتِّلون في صباحهم ومسائهم، بل وفي غُدُوِّهم ورَواحهم، وشاعَ ذلك وتكاثَرَ حتى إنَّك لترى أبناءَنا في المراكب العامَّة يُرتِّلون القرآنَ بصوت خفيض، لا تَسمعُ منه إلَّا همسًا حُلوًا عَذبًا رَطبًا غَضًّا لقلوبهم الغَضَّة الرَّطبة، وهذا جيِّدٌ رائعٌ؛ لأنَّك بهذا تُوشِكُ أن ترى جيلًا يَتكاثرُ ويَنمو حولَ المصحف مرَّةً ثانيةً.

وهذا يدعونا إلى مراجعة السِّرِّ في الحكمة الإلهيَّة التي يسَّرَت القرآنَ للذِّكر وزيَّنَته إلى القلوب، حتى

ترى أُمَّةً مقبلةً على الله، تَضَعُ كلامَ الله الشَّريفَ في إهابها، وهي غاديةٌ رائحةٌ، تَعملُ في عمارة الكون وخلافةِ الله في الأرض، وما أعظمَ هذه العمارةَ، إذا كانت من رجال مُقبلينَ على الله، استنارَت قلوبُهم بنور كلامه سبحانه، فلا غشَّ، ولا سرقةَ، ولا ظلمَ، ولا نَهبَ، ولا خداعَ، ولا سَفكَ للدِّماء، ولا فجورَ، إلى آخِر سلسلة الأَوصاب التي تَفتِكُ بالمجتمعات في غَيبة ذِكر الله وكلمة التَّقوى، وحين يُحارَبُ التَّديُّنُ، أو حين تُرمى الشُّعوبُ بالغفلة والنِّسيان، أو حين تَظهرُ فيها نوابتُ خبيثةٌ شرِّيرةٌ تَصُدُّها عن سبيل الله، وتَصِفُ ذلك بالتَّخلُّف والرَّجعة إلى عصور الظُّلمات، وتُغري الأفرادَ والجماعاتِ بطرق «العيش الحديثة»، و«السُّلوكيَّات المادِّيَّة» المقتبَسةِ من حضارات الآخرين، إلى آخر ما تَجِدُه على السَّاحة من صور ورموز ومذاهبَ.

وقد ذكَرَ علماؤنا أنَّ المقصودَ من قراءة القرآن

وحفظه والمحافظة على كلِّ حرف فيه وكلِّ حركة وسَكتَة ووَقفة؛ بحيث يَبقى على صورته التي نزَلَ بها، ثمَّ توريثُ هذه الصُّورة لأجيال النَّاس جيلًا بعد جيل، ذكَرَ علماؤنا أنَّ المقصودَ بذلك هو بقاءُ حُجَّة الله على عباده شاهدةً حاضرةً حيَّةً تتحرَّكُ في حياة النَّاس ومعهم؛ لأنَّ هذا القرآنَ هو معجزةُ النَّبي ﷺ ودليلُ نُبوته، وهو مُغايرٌ لمعجزات الأنبياء عليهم السلام، من حيث كانت أفعالًا أَجراها اللهُ على أيديهم، ثمَّ انقطَعَ وجودُها وبقيَ خَبرُها، كقلب العصا حيَّةً بالنِّسبة لموسى عليه السلام وإبراءِ الأَكْمه والأبرص، وإحياءِ الموتى بإذن الله، بالنِّسبة لعيسى عليه السلام.

القرآنُ مُعجِزٌ للبشر جيلًا بعد جيل وأُمَّةً بعد أُمَّة، هو هكذا يومَ أن نزَلَ، وهو هكذا اليوم، وسوف يظلُّ كذلك حتى ينتهيَ التَّكليفُ، ويُنفَخَ في الصُّور، لا يتغيَّرُ من هذه الحقيقة شيءٌ ألبتَّةَ؛ لأنَّ التَّقدُّمَ العلميَّ

الذي تُحققُه البشريَّةُ في مسيرتها خطٌّ آخَرُ مُغايرٌ لخطِّ المعجزات، من حيث كانت المعجزاتُ أمرًا لا يَدخُلُ في طَوق البشر، فسوف تظلُّ أجيالُ النَّاس عاجزةً عن أن تأتيَ بسورة من مثله، ولو وضَعَ العِلْمُ أقدامَهم على أنف الثُّريَّا؛ لأنَّ عجزَهم عن أن يأتُوا بسورة، كعجزهم عن إحياء الموتى، وسوف يظلُّ عجزُهم عن إحياء الموتى ضربةَ لازبٍ لا تَنفَكُّ، وهذا واضحٌ ولا ينبغي أن يَلتبِسَ، هذا هو المقصودُ من تيسير القرآن للذِّكر وشيوع تلاوته وتوريثِ طرائق ضبطه وترتيله.

وهذه الحقيقةُ غائبةٌ عنَّا، ونحن نقرأُ القرآنَ أو نَسمَعُه، وليس من الصَّواب أن تغيبَ؛ لأنَّ حضورَها يَدفَعُنا إلى تَفهُّم ما نقرأُ وتدبُّرِه، وفي التَّفهُّم والتَّدبُّر ما يَكشِفُ لنا من روائع القرآن ما يزدادُ به الإيمانُ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، ولا يُمكِنُ أن يزدادَ الإيمانُ بقراءة

الغافل والذَّاهل، والذي لا يَتدبَّرُ دقائقَ مَعانيه، ورقائقَ مَراميه، وإنَّما يزدادُ الإيمانُ بالقراءة التي تُحاولُ أن تَستكشِفَ ما في القرآن ممَّا بهَرَ العقولَ وأعجزَ الجمهورَ، كما يقولُ علماؤنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وقد أمَرَنا اللهُ سبحانه أن نتدبَّرَ القرآنَ وجعلَ سبحانه أصلَ الإيمان مُرتبطًا بهذا التَّدبُّر؛ قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

التَّدبُّرُ المطلوبُ في الآية هو التَّدبُّرُ الذي يَكشِفُ ما في القرآن من اتِّساق وتناغُم وتوافق، والتَّدبُّرُ الذي يُدرِكُ خلوَّ القرآن منَ الاختلاف والتَّناقض والتَّضارُب، وليس المرادُ الاختلافَ والتَّناقضَ في الأوامر والنَّواهي، كأن يُحرِّمَ شيئًا في سورة، ثمَّ يُحِلَّه في أخرى، وإنَّما المرادُ اختلافٌ آخرُ أدَقُّ من ذلك وأشَفُّ، وحسبُنا أن نتدبَّرَ كلمةَ الاختلاف هذه في هذه المقالة.

وقبل أن نَقِفَ عند هذه الكلمة الشَّريفة أزيدُ أصلَ المسألة وضوحًا، وأُكرِّرُ ضرورةَ إعمال الذِّهن، وإعمال البصيرة، ومزيدِ اليقظة والتَّنبُّه، ونحن نقرأُ القرآنَ، حتى نَحصُلَ على شيء ممَّا فيه، وفيه خيرٌ كثيرٌ لنا ولأجيال الأمم كلِّها، وإنَّما يأخُذُ كلٌّ قَدْرَ ما يستطيعُ وعيُه واستيعابُه، وهذا الثَّراءُ الذي لا يَنقطعُ مدَدُه ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدِّ هو إعجازُه، وقد جمعَ القرآنُ الكريمُ بين أمور ثلاثة في قَرَن واحد في أوَّل سورة الرَّحمن؛ قال سبحانه: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وأهلُ العلم يقولون: إنَّ تجاوُرَ المعاني، وضمَّ بعضها إلى بعض يُفيدُ أنَّها متقاربةٌ، وقد نبَّهَ رسولُ الله ﷺ إلى ذلك، وهو ﷺ أعلمُ أهل الأرض بما أُنزلَ عليه، لمَّا نزلَت آيةُ الحج: ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠]، وقَفَ ﷺ على ناقته،

ورفَعَ صوتَه بالآية، وقال: «**عدَلَت شهادةُ الزُّور الإشراكَ بالله، عدَلَت شهادةُ الزُّور الإشراكَ بالله، عدَلَت شهادةُ الزُّور الإشراكَ بِاللهِ**»(١).

وقال العلماءُ في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، دلَّ عطفُ برِّ الوالدَين على عبادة الله وحدَه، على أنَّ برَّ الوالدَين بمكان كبير عند الله، وهكذا تتجاورُ المعاني فتتقارَبُ وتتشارَبُ، وهكذا قُلْ في تعليم القرآن، وخلق الإنسان وتعليمه البيانَ، هذه الثَّلاثةُ كأنَّه شيءٌ واحدٌ في عَجْز البشر عن أن يَأتوا بمثلها، فالقرآنُ كخَلق الإنسان وكتعليمه البيانَ، وهذه الثَّلاثةُ معجزةٌ يعني: أنَّ الإنسانَ من

(١) [أخرجَ الحديثَ أبو داود (٣٥٩٩) وابن ماجه (٢٣٧٢)، وعند أحمد (١٨٨٩٨) بغير تكرار القول، وجاء موقوفًا بإسناد حسن من حديث ابن مسعود، كما عند الطبراني في الكبير (٨٥٦٩)، ولمعنى الحديث شواهد كثيرة في الصحيحين].

حيث هو مخلوقٌ حيٌّ ذو كبد وروح مُعجزٌ، ومن حيث هو ناطقٌ بالبيان معجزٌ، وهذا كلُّه يعني أنَّ تدقيقَ علماء الطِّبِّ في معرفة التَّشريح، ووظائف الأعضاء، وتناسق هذه الوظائف يَهديهم دائمًا إلى استجلاء مزيد من آيات الحكمة والقُدرة في خلق هذا الإنسان، وكذلك تدقيقَ علماء اللُّغة في تحليل كلمات القرآن وتحليل تراكيب هذه الكلمات، وتناسق أصواتها، ودلالاتها، يَهديهم إلى استجلاء مزيد من آيات الحكمة في هذا القرآن العظيم.

قلتُ هذا قبلَ تدبُّرِ كلمة ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]؛ لبيان أنَّه لا يستطيعُ أحدٌ أن يَصِلَ إلى نهاية المعنى في الكلمة القرآنيَّة، وأن يَضَعَ يَدَه على كلِّ ما فيها من لطائف ورقائقَ؛ لأنَّها مثلُ خَلْق الإنسان، كلَّما كشَفتَ منها وجهًا تبدَّت لك من تحته وجوهٌ كثيرةٌ.

ثمَّ أعودُ إلى الآية، مُهتديًا بكلام العلماء الذين

ذكَرُوا أنَّ الاختلافَ المنفيَّ عن القرآن هو الاختلافُ الذي يَعتري النَّفسَ الإنسانيَّةَ، ويَنعكِسُ على كلِّ ما يَصدُرُ عنها، انعكاسًا لا يَنفكُّ؛ وذلك لأنَّ أحوالَ الضَّعف والفُتور أحوالٌ ملازمةٌ للإنسان، ولا بُدَّ لهذه الأحوال أن تتسلَّلَ إلى ما يَصدُرُ عن هذه النَّفْس؛ لأنَّ قوَّةَ النَّفس وفُتورَها وصفانِ لا يَرتفعانِ عنها وهي تُباشرُ ما تُنجِزُ من أعمال وأقوال، ولاحِظْ نَفْسَك وأنت تقرأُ أو تَكتبُ أو تمارسُ ما شئتَ من الأعمال؛ تَجِد نَفْسَك في هذا كلِّه لا تمضي على خطٍّ بياني واحد، وإنَّما تراها تعلو وتَسفُلُ، وتَقوَى وتَضعُفُ، وتُصيبُ وتُخطئُ، وهكذا تتواردُ عليها الأحوالُ لا محالةَ، فإذا كانت صناعتُك الكتابةَ والقراءةَ مثلًا وجدتَ نَفْسَك وقد أصبتَ الفَهمَ هنا، وأخطَأتَ هناك، وأحسَنتَ عرضَ تلك الفكرة، واختَلَّت في بيانك فكرةٌ أخرى، وهكذا لا تقرأُ مقالةً ولا رسالةً ولا خُطبةً إلَّا وجدتَ فيها شيئًا يؤخَذُ

وشيئًا يُترك، وقُصارى ما عند المجيد أن تتكاثرَ عنده الأشياءُ التي تؤخَذُ وتَقِلُّ الأشياءُ التي تُتركُ، أمَّا أن تَجِدَ كلامًا رائعًا كلَّه، وسديدًا كلَّه، وعذبًا كلَّه، وفائقًا كلَّه، فهذا ليس في بلاغة النَّاس.

واقرَأْ ما شئتَ ممَّا دبَّجَته قرائحُ دَهَاقين الشِّعر والبيان، فلن تَجِدَ قصيدةً رائعةً كلَّ كلماتها، ولا رسالةً فائقةً كلَّ فِقَرها، وكان الباقلَّانيُّ واعيًا لهذه المسألة حين كتَبَ يَنقُدُ قصيدةَ: «قفا نبك» لامرئ القيس، وقصيدةَ: «أهلًا بذلكمُ الخيال المُقبِل» للبُحتري؛ وذلك لأنَّ جمهورَ العلماء على أنَّ امرأَ القيس أميرُ شعراء الجاهليَّة، وأنَّ قصيدتَه: «قِفَا نَبْكِ» أميرةُ شِعره، وكذلك جمهورُ العلماء على أنَّ البُحتريَّ أشعرُ المحدَثين، وقد سُئِلَ هو نَفْسُه عن خير شعره فقال: «أهلًا بذلكمُ الخيال المُقبِل».

وقَفَ الباقلَّانيُّ عند هاتين القصيدتين؛ ليدُلَّ على ما فيهما من ضعف واختلال، وهو وإن كان قد جارَ

على الشَّاعرَين إلَّا أنَّ الأمرَ في عمومه كما قال: لا يخلو شعرُه من غَميزة. وممَّا اتَّفَقَ عليه أصحابُ النَّظَر في الشِّعر والبلاغة في الأمم كلِّها، والآداب كلِّها والأزمنة كلِّها - أنَّه ليس هناك قصيدةٌ بُنيَت كلُّها من العناصر الشِّعريَّة المصفَّاة، ولا بُدَّ أن تُداخِلَها عناصرُ غيرُ شعريَّة، أمَّا الشِّعرُ الخالصُ المصفَّى فهو في أحلام الشُّعراء تَستشرِفُ نحوه أحلامُهم، وفي خيال النُّقَّاد لم يَقَعوا عليه بعدُ، كان البُحتري يَستمعُ إلى الشِّعر، وهو من علماء النَّاس به، فإذا وقَعَ على الشَّذرة الرَّائعة قال: هذه عُروقُ الذَّهب.

وهذا هو الاختلافُ القائمُ في كلام النَّاس والذي لا تَجِدُ شيئًا منه في القرآن، وكلامُ الإنسان يَختلِفُ قوَّةً وضعفًا على حسَب أبواب المعاني التي اعتادَها؛ فقد ترى الكاتبَ يَبرَعُ في كتابة المقالة السِّياسيَّة، فإذا عالجَ بقَلمه مقالةً أدبيَّةً ضَعُفَ واهتزَّ، وقد تراه يُحسِنُ كتابةَ القصَّة فإذا

عالـجَ الشِّعرَ أو المسرحَ اختـلَّ عليه بيانُـه وهكـذا، ولا تـرى كاتبًا واحـدًا يجري قلمُه في أبواب المعاني المختلفةِ على ضَرْب واحد من الجودة، لا تَنْبو فيه كلمةٌ، ولا يَسقطُ لـه حـرفٌ، ولا يَنفِرُ عليه تركيبٌ، ولا يَعتاصُ لـه بيانٌ، لا تـرى هـذا أبـدًا.

وهذا هو تاريخُ العلم والأدب والعلماء والأدباء، لـكلٍّ منهم بـابٌ غلَبَ عليه، وأحكَمَ المقالـةَ فيه، فإذا خرَجَ عنه سبقَه مَن هو أقلُّ منه شأنًا، وأضيقُ منه ذرعًا، ولو كان مخرجُ القرآن هو هذه النَّفْس البشريَّة؛ لرأيتَ ذلك فيه؛ لأنَّه متعدِّدُ المناحي، متباعدُ الغايات، فيه القصصُ، وفيه الموعظةُ، وفيه الفرائضُ، والوعدُ والوَعيدُ، إلى آخره، ومع ذلك ترى بيانَه كاملًا في الكلِّ، رائعًا في الكلِّ، له اتِّساقٌ واحدٌ، وضربٌ واحدٌ، لا يَعلو هنا ويَهبِطُ هناك، ولا يَقْوى هنا ويَلينُ هناك، يَنتفي الاختلافُ عن جميعه انتفاءً تامًّا، ويُختارُ كلُّه من غير استثناء، وإذا

أُجريَت كلمةٌ منه في خُطبة أو رسالة ظهَرَت وبهَرَت وارتفَعَت وقهَرَت وهذا ضربٌ غيرُ ضُروب الكلام كلِّه، ومَعدِنٌ غيرُ معادنه كلِّها.

وتدبُّرُ القرآن جاء في أربع سُوَر:

آيةُ النِّساء هذه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، والثَّانيةُ في سورة محمَّد: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، والصِّياغةُ واحدةٌ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، والتَّعقيبُ مختلفٌ، فهو في سورة النِّساء بيانُ تمام البرهان وثمرةِ التَّدبُّر، وهو معرفةُ نفي الاختلاف الذي لا يوجَدُ في كلام البشر، وهذا مُتناسِبٌ مع قوله قبلَ ذلك: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١]، والتَّعقيبُ في سورة محمَّد: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وفي هذا من الشِّدَّة ما ترى وهو مناسبٌ لقوله قبل الآية:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٣]، وهذا جيِّدٌ واضحٌ، والآيةُ الثَّالثةُ في سورة المؤمنون: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، والقولُ هو القرآنُ، والمرادُ بالاستفهام كالذي قبلَه إنكارٌ لهم وتوبيخٌ على تقصير قد وقَعَ، وهو عدم التَّدبُّرِ، وهذا من صيغ الاستفهام النَّادرة التي تَدخلُ فيه همزةُ الإنكار على النَّفي ولا يُرادُ الإثباتُ، والكثيرُ كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ١]، ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، إلى آخره، والآيةُ الرَّابعةُ في سورة ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وبهذا يكونُ كلُّ تدبُّر في القرآن مقصودٌ منه بيانُ أنَّه حُجَّةُ الله وأنَّه الحقُّ، وأنَّ النَّظرَ فيه بمنهج مستقيم يَهدي إلى ذلك لا محالةَ، وهذا أصلٌ من

أصول الدِّين، وواجبُ العلماء هو فتحُ باب التَّدبُّر في آيات الله لجماهير الأُمَّة؛ لأنَّهم هم الذين يَستطيعونَ التَّفهُّمَ والتَّدبُّرَ والاستنباطَ، ثمَّ يُحدِّثون الأُمَّةَ بما يَفتَحُ اللهُ به عليهم، وهذا ضروريٌّ ومُلِحٌّ في هذا الوقت؛ لتنتفعَ الأُمَّةُ بهذه الطَّاقة الرُّوحيَّة الهائلة المتَّجهة إلى الله، والتي ملأَت الأرضَ قرآنًا، والمتمثِّلةِ في هذه الجموع الهائلة التي لزِمَت المصحفَ بصورة لم يَحدُث لها نظائرُ في التَّاريخ الحديث، ممَّا يؤكِّدُ أنَّنا في مرحلة تَحوُّلٍ نحن ذاهلون عنها، وغيرُنا جادٌّ في تفريغها من مضمونها.

وهذا تكليفٌ من الله لأهل العلم، حتى يَجتَهِدوا في تيسير طرائق التَّدبُّر للقرآن لهذه الجماهير التي احتشَدَت حول نَبْعه مرَّةً ثانيةً تَطلُبُ الرِّيَّ، فهَيَّا يا معشرَ العلماء أجيبوا داعيَ الله وبيِّنُوا ووضِّحُوا حتى يهتديَ مَن ضلَّ ويَقتربَ مَن ابتعَدَ،

وحتى يَصدَحَ بهم صوتُ القرآن يقودَ الدُّنيا مرَّةً ثانيةً، وليس هذا ببعيد، بل هو كائنٌ إن شاء الله.



﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾

جاء ذكرُ الحجِّ في القرآن الكريم في سورة البقرة وتتابَعَت الآياتُ في شأنه من أوَّل آية (١٩٦): ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٩٦] إلى آخر الآية (٢٠٣): ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، كما جاء في سورة آل عمران في آيتين اثنتين من أول قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] إلى آخر قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧]، ومعلومٌ أنَّ في القرآن سورةً سُمِّيت «الحجَّ»، وقد جاء ذِكرُه فيها من أوَّل آية (٢٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾ [الحج: ٢٥] إلى آخر آية (٣٧) قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ [الحج: ٣٧].

وسوف نَعرضُ بإيجاز المقاصدَ من ذكره في هذه السُّور الثَّلاث، مُبتدئين بآل عمران لاختصار الكلام فيها؛ وذلك لأنَّها ذكَرَت الحجَّ في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وكان كلُّ الطَّعام حِلًّا لهم إلَّا ما حرَّمَ إسرائيلُ على نَفْسه من قبل أن تُنزَّلَ التَّوراةُ، وأنَّهم ظلَمُوا وحرَّفُوا، ثمَّ جاء قولُه تعالى: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ [آل عمران: ٩٥-٩٧]، إلى آخر الآية.

والمقصودُ هو أنَّ الحجَّ عبادةٌ قديمةٌ قِدَمَ النُّبوَّات، وأنَّ أبا الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ له فيه مقامٌ، وأنَّكم أيُّها اليهودُ لو لم تُحرِّفوا لكنتُم من المسارعين باتِّباع الإسلام الذي هو ملَّةُ إبراهيم الذي هو أبو الأسباط الذي أنتُم منهم، وأنَّ هذا الإسلامَ الذي أنزلَه اللهُ

على محمَّد -صلواتُ الله وسلامُه عليه- هو الدِّينُ الذي وَرِثَ النُّبوَّاتِ، وأنَّ أصولَه هناك عند إبراهيم عليه السلام الذي كان حنيفًا مسلمًا، وأنَّ قِبلةَ الإسلام فيها لإبراهيم عليه السلام مقامٌ، وهذا المقامُ آيةٌ من آيات بيِّنات على نُبوَّة محمَّد ﷺ، وهذا هو المقصودُ الظَّاهرُ من ذكر الحجِّ في هذه السُّورة التي عُنيَت بحوار أهل الكِتاب، ونُودُوا فيها كثيرًا، ونُوقِشوا بهذا المنطق الدَّقيق المحكَم.

وهذا خلافُ ما جاء في سورة البقرة التي عُنيَت آياتُها بأحكام الحجِّ، وذِكر المتعة، والقِران، والهَدْي، وحُكم مَن أحصرَ ولم يُتمَّ الحجَّ أو العمرةَ، والإفاضةِ والمشعرِ الحرامِ، وكأنَّ آياتِ البقرة هي آياتُ الأحكام في الحجِّ، ووجهُ هذه المخالفة هو أنَّ السِّياقَ في سورة البقرة سياقُ السُّؤال عن الأهِلَّة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وهذا سياقُ تقرير أحكامٍ.

أمَّا سورةُ الحجِّ فلها شأنٌ آخرُ، هو غايتُنا من هذا المقال، ومُلخَّصُه أنَّ السُّورةَ تدورُ حولَ حوار الإنسان في شأن أمرين جليلين، هما: الإيمانُ بالله، والإيمانُ بالبعث، وقد تكرَّرَ النِّداءُ فيها بصيغة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، وقد افتُتِحَت به السُّورةُ، ثمَّ جاء في الآية الخامسة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج: ٥]... إلى آخر الآية، ثمَّ جاء في آية (٤٩): ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الحج: ٤٩]، ثمَّ جاء في آية (٧٣): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ

مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ [الحج: ٧٣].

ولمَّا بدأَت السُّورةُ بنداء النَّاس أَشعَرَتْ من أوَّل الأمر أنَّها تدعو الإنسانَ؛ ليُقبِلَ على أمر مهمٍّ أفصَحَت عنه بعد هذا النِّداء ولواحقه، وهو أنَّ منطقَ التَّوحيد والإيمان قد غشِيَته لَجاجةُ أهل الجَدَل، وأَلبَسَ سبيلَه منطقٌ يتَّبعُ الأهواءَ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣].

وهذا واضحٌ في أنَّ الحوارَ في قضيَّة الإيمان يَجِبُ أن يكونَ حوارًا عِلميًّا مُترفِّعًا عن الأهواء التي يُزَيِّنُها كلُّ شيطان مريد، وهذا شيءٌ رائعٌ ومنطقٌ سديدٌ.

وبعدما طرَحَت السُّورةُ هذه القضيَّةَ سلَكَ القرآنُ في حوارها مسلكًا مضبوطًا بضوابط الحكمة، وداخلًا في غِمار العِلْمِ المُتغلغِل في الأشياء، تأمَّلْ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ

ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ [الحج: ٥].

هذا الحوارُ في أمر البعث بُنِيَ على أصول عِلميَّة، هي من أصلاب البحث العِلمِي، وليس من الجدَل الكلامي.. الحوارُ لابسَ الأشياءَ، وأخذَ يُحلِّلُها ويَتغلغلُ في عِلْمِ تشريحها، وبهذا يَنتقِلُ العقلُ الإنسانيُّ من المحيط اللُّغوي البياني، الذي كان قد بَشِمَ منه، وملأَ طِباقَ الأرض بشِعره ورَجْزه وصَخَبه، إلى المحيط العِلْمِي، الذي يَنظُرُ في العَلَقَةِ وكيف تَتخلَّقُ حتى تَصيرَ مُضْغةً وما مراحلُ هذا التَّخلُّق، والغريبُ أنَّها دخلَت بالحوار في عِلْمِ الأجِنَّةِ، وهو عِلْمٌ بيننا وبينه حُجُبٌ؛ لأنَّه في الأرحام.

ولن نستطيعَ أن نُحكِمَ فَهمَ هذا إلَّا بعِلْمٍ متَّسع في ميادينَ مختلفة، منها قيامُ صناعات متطوِّرة تُعينُ على رَصْد هذه المراحل -نَعَم يكفي الإنسانَ محدودَ الثَّقافة أن يتدبَّرَ هذا الأمرَ الدَّالَّ على وجود الخالق- ولكن هذا على مستوى قِصَّة الإنسان الذي رضي اللهُ

له هذا الدِّينَ، وأَتَمَّ به النِّعمةَ، لا بُدَّ أن يستوفيَ فقهَه بالوسائل العِلْمِيَّة المعتبَرة في هذا الباب في كلِّ زمان، وتأمَّل قولَه سبحانه: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ في صدر هذا الحديث، ومن دَلالات العلم ما نحن فيه في زماننا، وما تكونُ الأجيالُ فيه في أزمنتها؛ لأنَّ العِلمَ هنا مطلقٌ، ليس عِلمَ الكلام، ولا عِلمَ الفقه، ولا عِلمَ المنطق، وإنَّما هو كما ترى، وهذا شيءٌ لا بُدَّ من اعتباره، وإلَّا نكونُ قد أنقَصنا لفظَ القرآن بعضَ مدلوله، والآيةُ تقولُ: إنَّ مَن لم يُحكِم فَهمَ هذا فهو جاهلٌ مجادلٌ ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾، ثمَّ هو غيرُ عقلاني؛ لأنَّه يَتَّبعُ هواجسَ نَفْسه وأهواءها، لم يَستطِع أن يُحيِّدَ نَفْسَه ويَنظُرَ نظرةً عِلْمِيَّةً بحتةً يتخلَّصُ فيها من كلِّ هواجس الذَّات: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾، وكأنَّ الآيةَ تأخُذُ بيَد الإنسان برِفق شديد؛ لتضَعَ قدَمَه على طريق المنهج الذي يتجرَّدُ فيه لطلب الحقيقة، بالعِلمِ المتَّسِع، والعقل المتَّئِد.

ولو حلَّلتَ تاريخَ الحضارات في تاريخ الإنسان، من يوم أن خلَقَ اللهُ أبانا آدمَ من سلالة من طين، فلن تَجِدَ سبيلًا ارتقَى بالإنسان وازدَهَرَت به حياتُه وإنسانيَّتُه، يَخرجُ عن هذا الذي صاغَتهُ الآيةُ في إيجازها الشَّديد.

ثُمَّ تأمَّل نتائجَ هذا الطَّريق تَجِدِ الآيةَ بعدما أرشَدَت العقلَ الإنسانيَّ إلى الأضواء السَّاطعة في الأشياء، تنتهي به إلى نتائجَ هي:

١- أنَّ اللهَ هو الحقُّ.

٢- وأنَّه يُحيي الموتى.

٣- وأنَّه على كل شيء قدير.

٤- وأنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها.

٥- وأنَّ اللهَ يَبعثُ مُن في القبور، هكذا بهذا التَّتابع؛ وبذلك يَصيرُ الإيمانُ بهذه الحقائق العظيمة مُنبثِقًا من العِلْمِ العِلْمِي، أي: العِلْمِ بالأشياء المقترِنِ بالتَّفكير العِلْمِي الخالص من شوائب الأَهواء، وهذا

شيءٌ فوق الرَّائع.

وفي هذا السِّياق يأتي ذِكرُ الحجِّ، وقد قلتُ: إنَّ المقصودَ الأوَّلَ في السُّورة هو حوارُ الإنسان وإخراجُه من محيط الثَّرثرة اللُّغويَّة التي تؤجِّجُها الأهواءُ والنَّوازعُ والهواجسُ، إلى التَّأمُّل في الأشياء وتحليلِها، والارتكازِ على العِلْمِ بها في استنباط الأصول الفكريَّة والعقائديَّة.

ولمَّا شارَفَ الكلامُ على الانتقال إلى الحجِّ رمى القرآنُ العظيمُ بلَمْحة تَجعلُك تقولُ: إنَّ هذا القرآنَ كأنَّه نزَلَ فينا نحن، فقد عَلِمَ الحقُّ أنَّ الحجَّ هو مُلتقى أهل القِبْلة، من كلِّ فَجٍّ من فِجاج الأرض يأتون، وقد اختلَفَت مناشئُهم وطبائعُهم وعاداتُهم، وأنَّه قد يكونُ هناك مَن اندَسَّ فيهم لحاجة في نَفْس إبليس قضاها، فكان لا بُدَّ لهذا الحشد الحاشد من ضوابط أخلاقيَّة تَضمَنُ سلامةَ هذا الملتقى، حتَّى لا تَندلعَ فيه كلمةٌ غاضبةٌ فتُخرِجَه من قُدس جلاله،

فجعلَ الحقُّ في مدخلِ الحديثِ عنه هذه الكلمةَ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]، تأمَّلِ الطَّيِّبَ من القول، وهذا هو بابُ الكلام، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وهذا هو بابُ الفِعال؛ أعني: السُّلوكَ المحمودَ الذي لا يَجِدُ فيه أحدٌ غَميزةً، هذا هو سِياجُ هذا اللِّقاء: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد انتقلَ الكلامُ إلى الحجِّ من خلال الحديث عن الذين كفروا، وقد سبَقَ بذِكر الخصومة بين الفريقين: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، ثمَّ ذكَرَ عقابَ أصحاب اللَّجاجة والجدل، الذين يَلبِسون الحقائقَ، ويُضلُّون النَّاسَ، وأنَّ هؤلاء تُقَطَّعُ لهم ثيابٌ من نار، وأنَّه تُصَبُّ من فوق رءوسهم الحميمُ، خَصَّ الرءوسَ هنا؛ لأنَّها هي التي لفَّقَت القولَ الخبيثَ، وزَوَّرَت به حقائقَ الأديان، ولبَّسَت على النَّاس، وأضلَّتهم، ثمَّ ذكَرَت أنَّ لهم مقامعَ

من حديد، تُطرَقُ بها جماجمُهم الكاذبةُ، ثمَّ قابَلَت هذا بنعيم أهل الحقِّ الذين وقَفُوا بجانب الحقيقة يَكشِفون وجهَها الحُرَّ بالمنطق الرَّفيع، وليس باللَّغو وصَخَب التَّهريج، ثمَّ استأنَفَ الحديثَ عن الذين كفروا، وهيَّأ لأمرين:

١- الحجُّ.

٢- الجهادُ.

وهذا هو الكلامُ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

تأمَّل العطفَ في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه مهمٌّ، ووجهُ أهمِّيَّته أنَّ هؤلاء لم يكفروا فحسب؛ يعني: لم يعيشوا مُسالمين كافِّينَ أيديَهم وألسنتَهم عن المسلمين، ولو كانوا كذلك لكان لهم شأنٌ آخرُ، وإنَّما أضافوا إلى كفرهم الصَّدَّ عن

سبيل الله؛ أي: عن دين الله وعن المسجد الحرام، وهذا سلوكٌ استفزازيٌّ، وعملٌ عدوانيٌّ بلا ريب، وجاء التَّعبيرُ عن هذا بالمضارع ﴿وَيَصُدُّونَ﴾، مع أنَّ الذي قبلَه فعلٌ ماضٍ ﴿كَفَرُواْ﴾، وذلك للإشارة إلى أنَّ هذا الفعلَ الذي هو الصَّدُّ والمحاربةُ والاعتداءُ عملٌ يَتكرَّرُ منهم ويتجدَّدُ، بخلاف الكفر فقد كفروا وانتهى الأمرُ، وهذا العطفُ وهذا الفعلُ المضارعُ إيذانٌ بأنَّ الآياتِ ستأتي بالإذن في القتال، وقد جاء ذلك بعد ثلاث عشرةَ آيةً: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وهذا هو ما يُسمِّيه العلماءُ النَّظْمَ المعجزَ؛ لأنَّه يستحيلُ أن تَجِدَ مثلَ هذه اللَّمحة في شعر شاعر، وهذا هو الشِّعرُ كلُّه بين يدَيك، ثمَّ إنَّه عطفَ المسجدَ الحرامَ على سبيل الله، وهو منه؛ لأنَّ سبيلَ الله عامٌّ يَشمَلُ المسجدَ الحرامَ، وذلك للإيذان بتميُّز

فريضة الحج، وضرورةِ تأمين الطَّريق لأدائها، وأنَّ هذا واجبُ الأُمَّة كلِّها، وإذا كان حوارُ السُّورة حولَ التَّوحيد، فالحجُّ إلى بيت الله والدُّخولُ في جملة الطَّائفين والقائمين والرُّكَّع السُّجود هو برهانُ التَّوحيد السَّاطع، من أوَّل النُّبوَّات.

ولهذا تَجِدُ مُداخلاتٍ تتخلَّلُ الحديثَ عن الحج في سورة الحج تَختلفُ عن المداخلات التي تتخلَّلُ الحديثَ عن الحج في سورة البقرة؛ لأنَّ سورةَ البقرة كما قلتُ احتَفَلَت ببيان الأحكام، متَّجِهةً عند فواصل الآيات إلى التَّخويف بشدَّة العقاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أمَّا المداخلاتُ في سورة الحج فشيءٌ آخَرُ، منها قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وهذا من أشدِّ الوعيد، ويَجِبُ أن يكونَ بين عَينَيْ مَن يتَّجِهُ إلى البيت؛ لأنَّ

اللهَ سبحانه قد رفَعَ عنَّا الحرجَ فيما تُحدِّثُ به النَّفسُ إلَّا في البيت الحرام، فمجرَّدُ إرادة المعصية، والحَيْدة عن مرضاة الله، وهو معنى الإلحاد من قولهم: ألحَدَ عن القصد؛ أيْ مالَ - مجرَّدُ هذا موجِبٌ للعذاب؛ لأنَّه خروجٌ عن مقتضيات الخشية والإجلال والتَّعظيم لصاحب البيت، وإصغاءٌ إلى الأهواء والهواجس، ثمَّ تأمَّل قولَه سبحانه: ﴿نُّذِقْهُ﴾، فقد أسنَدَ التَّعذيبَ إلى نَفْسه، وهو الرَّحمنُ الرَّحيمُ، ووراء ذلك من فَرْط الغضب ما وراءه، ولم يكُن هذا لو قال يذوقُ العذابَ مثلًا؛ لأنَّ هذا المُحدِّثَ نَفْسَه بالمعصية لم يَخَف مقامَ ربِّه، وهو في بيته، وقد أعدَّ اللهُ له كرمَ الضِّيافة، لمَّا دخلَ بيتَه، فجعلَ له الصَّلاةَ بمئة ألف صلاة، فإذا خرَجَ المسلمُ من محيط هذا القدس الأكرم وصاحَ في البيت وصخَبَ غيرَ مُكترِث بجلاله؛ فقد استحقَّ غضبَه وأخْذَه، وإنَّ أخذَ ربك لشديدٌ، قلتُ: وهذا ممَّا يَجِبُ أن يتدبَّره كلُّ حاجٍّ ومُعتمِر.

ثمَّ تَجِدُ في المداخلات قولَه سبحانه: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، الموقفُ موقفُ إعظامٍ لشعائر الله، ولا يَعلو شيءٌ في القلب فوق تعظيم حُرُماته وشعائره، ثمَّ تَجِدُ من المداخلات هذا المثَلَ العظيمَ الذي يَربِطُ موضوعَ الحج بموضوع السُّورة، وهو تثبيتُ عقيدة التَّوحيد، يَصِفُ القرآنُ في مدخل هذا المثَل قلوبَ المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣١]؛ أي متَّجِهةً إلى الله لا تُشركُ به أحدًا، ثمَّ قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

تأمَّل كيف انعقَدَ المثَلُ على سقوط هذا المُشرِك من السَّماء، ثمَّ تفرَّعَ على هذا السُّقوط بقيَّةُ المثَل: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾.

قلتُ: إنَّ سياقَ آيات الحج في سورة الحج سياقُ تعظيم لله وحُرُماته، وهذا ارتفاعٌ بالنَّفس؛ لأنَّ

خلوصَ العبادة لله ارتقاءٌ بالإنسان، وتسامٍ يَسمو به فوق الرَّذائل والصَّغائر والدَّنايا، وهذا الذي أشركَ إنَّما سقَطَ من سماوات القُرب، وعجَزَت روحُه عن أن تَستشرفَ في مَراقي الإيمان، وبيان أنَّه تهوي به الرِّيحُ في مكان سحيق، فيه مقابلةٌ خفيَّةٌ بينه وبين ارتقاء هذا المُقبِل على الله من الفَجِّ العميق.

وفي المداخلات قولُه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]، وقولُه سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وهذا كلُّه تركيزٌ على تربية المهابة والخشية، وكأنَّ المسلمَ في أيَّام الحج مرابِطٌ على ثُغور نفسه، حتى لا تُداخِلَها هواجسُ المعصية، وحتى تظلَّ النَّفسُ حيَّةً حسَّاسةً واجفةً وَجِلةً؛ لأنَّ هذا هو سبيلُ الله، وسبيلُ رحمته ورضوانه، وهو ثمرةُ الإيمان، وقد قلتُ: إنَّ سورةَ الحجِّ تدورُ حول تثبيت عقيدة

التَّوحيد، وإنَّ الحجَّ هو ذروةُ عقيدة التَّوحيد، وثمرتُه الرَّفيعةُ؛ لأنَّه بهذه الأوصاف التي يَجِبُ أن يتَّبِعَها الحاجُّ قمَّةُ الخشية، وقد ذكَرَ القرآنُ الكريمُ أنَّ معرفةَ الله تقودُ إلى خشيته؛ قال تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٩]، والخشيةُ هي التَّقوى، وهي وَجَلُ القلب عند ذكر الله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ونسألُ اللهَ الرَّحمةَ والرِّضوانَ، ونُصلِّي ونُسلِّمُ على نبيِّه صلواتُ الله وسلامُه عليه.



الاختلافُ المحمودُ

ليس المقصودُ من هذا المقال أن يتشيَّعَ إلى اتِّجاه، ولا أن يُعارضَ اتِّجاهًا، وإنَّما مقصودهُ وما بعده أن يَبحثَ عن الصَّواب، وأن يَعرضَه لقومه، وأن يَبحثَ عن الخطأ الكامن في مَكامنَ خفيَّة، وأن يُحذِّرَ قومَه منها، ولو كان السُّكوتُ يُحمَدُ ويُرجَى عند الله وعند الجماعة الوطنيَّة التي هي أهلُ البلاد جميعًا - لآثَرتُ السُّكوتَ؛ لأنَّنا في زمن بَلْبَال يُصبحُ ويُمسي المرءُ فيه وهو حيرانُ، يرى البلاءَ والشَّرَّ يَزحفُ من هنا وهنا وهو عاجزٌ عن أن يَدفعَ، ولولا أنِّي أخافُ أن ألقَى ربِّي وفي صدري كلمةُ حق هي بمثابة الشَّهادة التي نهانا ربُّنا عن أن نكتمَها، أقولُ: لولا ذلك لأَرحتُ واسترحتُ.

ثم إني أرى ويَرَي غَيْري أن أكثر البلايا التي نحن فيها راجع إلى ترك الساحة لأهل الأهواء؛ لأننا لا نقرأ ولا نسمع إلا تأييدًا مُفرطًا، أوْ هجومًا مُفرطًا، والكلامان مُتدافعانِ، وتدافعُ الكلامين يعني: سقوطَهما بناءً على القاعدة المنطقيَّة التي تقولُ: «تدافَعا فتساقَطا»، وبقيَ التِّيهُ الذي هو شرُّ ما يَسقطُ فيه النَّاسُ، وكلمةُ الحقِّ الباحثةُ عن محض الحق والمتَّجِهةُ إليه لا تحيدُ عنه هي سبيلُ الفلاح والصَّلاح، وهي زَوْرقُ الخروج من التِّيه، وهي النُّورُ الهادي إلى الصِّراط المستقيم الذي ندعو اللهَ أن يَهديَنا إليه في كلِّ ركعة نَقِفُ فيها بين يدَيه، وقد قال لنا ربُّنا قولًا صريحًا؛ إنَّ كلمةَ الحقِّ هي السَّبيلُ الذي لا سبيلَ لكم سواه إلى صلاح أعمالكم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]، وبعد هذه الآية قولُه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهذا التَّجاورُ بين الآيتين دالٌّ دلالةً صريحةً على أنَّ كلمةَ الحقِّ من الأمانات التي كلَّفَنا ربُّنا بها، وأنَّها ثقيلةٌ ولها تكاليفُ، وقد أمَرَنا ربُّنا أن نؤدِّيَ الأماناتِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وكلمةُ الحقِّ حقُّ الله علينا وأمانتُه سبحانه في أعناقنا، وهي حقُّ البلاد والعباد.

ولم يَضُرَّ النَّاسَ شيءٌ كما يضرُّهم النِّفاقُ والكذبُ، وإذا كانت كلمةُ الحقِّ ضياءً يُخرجُ النَّاسَ من ليل الفتنة وظلمات الظُّلْم فإنَّ كلمةَ النِّفاق هي التي تُدخِلُهم هذا اللَّيلَ المُلْبِسَ، وبقَدْر ما تُصلِحُ الكلمةُ السَّديدةُ المذكورةُ في كلام ربِّنا تُفسِدُ الكلمةُ الكاذبةُ، وإذا كان الكذبُ يَهدي إلى النَّار في الآخرة، فإنَّه هو نفسُه صانعُ الجحيم على هذه الأرض؛ لأنَّ الفسادَ والإفسادَ والقهرَ والظُّلمَ

وإهانةَ الإنسان، كلُّ ذلك وغيرُه هو جحيمٌ على هذه الأرض، ولم أَعرِف عملًا يَفْتحُ بابَ الجحيم في الآخرة إلَّا وقد فتَحَ هذا العملُ نَفْسُه بابًا من أبواب الجحيم في الدُّنيا، ولم أَعرِف برًّا يَهْدي إلى الجنَّة وصِدقًا يَهدي إلى الجنَّة وحقًّا يَهدي إلى الجنَّة، إلَّا وقد صنَعَ هذا البِرُّ وهذا الصِّدقُ وهذا الحقُّ جنَّةً على الأرض، وتُلاحظُ أنَّ مفتاحَ باب الجنَّة في الكِتاب العزيز هو عملُ الصَّالحات؛ أي: العملُ الذي تَصلحُ به حياةُ النَّاس وتَهنأُ وتَهدأُ وتَأمنُ حتى تكونَ الأرضُ مَقامًا أَمينًا، والمقامُ الأمينُ وصفٌ مشتركٌ بين حياة النَّاس على الأرض وحياتهم في الجنَّة.

ومن تكاليف الكلمة السَّديدة التي ذكَرَ ربُّنا أنَّها مَنوطٌ بها صلاحُ أعمالكم وأحوالكم، وأنَّ عكسَها مَنوطٌ به فسادُ أعمالكم وأحوالكم، من تكاليف هذا الكلمة أنَّك تَنحازُ إليها وتقولُها، وإن كانت

على غير ما تَهوَى؛ لأنَّ اتِّباعَ الهوى ليس هو طريقَ الحق، ولذلك أُمِرْنا أن نقولَ الحقَّ على أنفسنا وعلى الأقربين منَّا، كما أُمِرَ القاضي أن يَعزِلَ عن حُكْمِهِ ما في قلبه من بغضاء وشَنَآن، وأن يَقصِدَ إلى العدل فيَحكُمَ للذي يَجِدُ في قلبه له بغضًا وشَنَآنًا: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، تأمَّل كلمةَ ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ وما فيها من لَفْت وما وراءها من غضب وتهديد، وما بُنِيَت عليه من القطع والاستئناف، وأنَّ الوَيلَ لك إذا حكمتَ بما في صدرك من حبٍّ أو بغضٍ، ولكن ابحَثْ عن الحقِّ، وهكذا يُقالُ للكاتب ومَن يُخاطبُ النَّاسَ في شأنهم العامِّ.

وخلاصةُ هذه المقدِّمة أنَّ القولَ السَّديدَ الذي ذكَرَه ربُّنا يعني الإعلامَ النَّظيفَ، وأنَّ قولَه سبحانه: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يعني: القضاءَ النَّظيفَ، وأنَّ أيَّ نظام سياسي يَحرِصُ على نظافة هذين

الرُّكنين المكينينِ من أركان المجتمع هو بلا ريب نظامٌ نظيفٌ.

المقدِّمةُ الثَّانيةُ: هي أنَّ الاختلافَ من طبيعة البشر وجزءٌ من فِطرتهم وقد اختلَفوا وهم الآن مختلفون، وسيظلُّ الخلافُ على هذا الكوكب بين أبناء أَبينا آدمَ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، والذي يريدُ مجتمعًا خاليًا من الخلاف هو لا يريدُ مجتمعًا إنسانيًّا، وإنَّما يريدُ سِربَ قطيع يَتبَعُه حيث يشاء، وقد تفهَّمَ عقلاءُ النَّاس الطَّبيعةَ البشريَّةَ، وأن هذا الخلافَ جزءٌ منها، وأنَّ مواجهتَه بالقَمع والقهر والظُّلم مواجهةٌ غبيَّةٌ؛ لأنَّها تزيدُه استعارًا، فقام علماءُ النَّاس وحكماؤهم وأهلُ الرُّشد فيهم بدراسة وتحليل مسائل الخلاف، وحاولوا دائمًا تضييقَ المسافة التي بين الآراء المختلفة؛ وبحَثُوا

عن المسافاتِ المشتركة بينها وأزالوا قِشْرةَ الظَّاهرِ المختلفِ واقتَربوا من لُبابِ الباطنِ المتقاربِ، وأكَّدُوا أنَّ الخلافاتِ الفكريَّةَ لا يُنْهيها إلَّا عملُ الفكرِ، ولن تُحلَّ بالقمعِ أبدًا، وأنَّ طريقةَ وَأدِ الخلافِ بالقوَّةِ هي طريقةُ مَن لا يجوزُ له أن يكونَ ذا رأيٍ في الشَّأنِ العامِّ؛ لأنَّ الشَّأنَ العامَّ يَلتئمُ ويَأتلفُ بالعقل والبرِّ والمرحمة، وليس بالدَّم والقهر والإهانة، وهذا الأخيرُ لم يَبقَ له وجودٌ إلَّا في عالم الغابة التي يُديرُها الأغبياءُ.

والذي يقرأُ الكتُبَ ويَجِدُ رِيحَ العلم يرى كثيرًا من مواقف الخلاف المتباعدة في العلوم كلِّها وفي السِّياسية أيضًا، ولا يزالُ علماءُ هذه العلوم يَبحثون ويُحلِّلون ويَستنبِطون العناصرَ المشتركةَ ويكوِّنون الصِّلاتِ والرَّوابطَ حتى تَضيقَ مساحاتُ الخلاف، وحتى يَصِحَّ للعالِم الكريم الرَّائع أن يقولَ عبارتَهم الذَّكيَّةَ: إنَّ الخلافَ بين هذين إذا

لـم يكُـن خلافًـا لفظيًّـا فإنَّـه يوشِـكُ أن يكـونَ لفظيًّـا، ومعنـى العبـارة أنَّ الخـلافَ ليـس في الجوهـر وإنَّما فـي اللُّغـة التـي عبَّـرَت عـن هـذا الجوهر.

وكلُّ مَـن تربَّـى فـي هـذه المدرسـة الرَّفيعـة التـي عَمَلُها تقريبُ الآراء وتأليفُ المختلف يَجِدُ خلافاتِنا التـي نتنـازعُ حولَهـا تـكادُ جميعًـا أن تكـونَ خلافـاتٍ لفظيَّـةً، وخصوصًـا إذا جعلنـا مصلحـةَ الوطـن هـي المرجـعَ الـذي نرجـعُ إليه، وليسـت مصلحـةَ جماعة ولا مؤسَّسـة، وكلمـةُ تأليـف المختلـف التـي هـي الأصـلُ فـي تقريـب المسـافة بيـن المختلفيـن كلمـةٌ شـائعةٌ جـدًّا فـي كلام علمائنـا.

وقـد أدرَكَ أهـلُ الرُّشـد أنَّ الخـلافَ سـلاحٌ ذو حَدَّين؛ حدٌّ مفيد، وحدٌّ ضارٌّ، أمَّا المفيدُ فإنَّ الخلافَ يدعونا دائمًا إلى تحرِّي الصَّواب، ثمَّ إنَّ تقريبَه لا يكونُ إلَّا بالنَّظَر العقلي الدَّقيق والنَّافذ، وأمَّا الجانبُ الضَّارُّ فهو تنازعُ النَّاس، وهذا التَّنازعُ ليس فوقه خطرٌ يُهدِّدُ

حياةَ الجماعة، ويَذهبُ بطاقتها التي تُقيمُ بها أُسُسَ حياتها، وأُسُسَ تقدُّمها، وأُسُسَ قوَّتها وازدهارها وحمايتِها لأرضها وعِرضها، وهذا أمرٌ تُدرِكُه الفطرةُ قبل أن تُنبِّهَ إليه الدِّياناتُ، وهو في كتاب الله شرٌّ حاسمٌ يورِثُ أمرين ليس أبشعُ منهما.

الأمرُ الأوَّلُ: هو الفشلُ.

والأمرُ الثَّاني: هو الهزيمةُ.

ولذلك كان النَّهيُ عنه نهيًا قاطعًا: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ولو فسَّرتَ الفشلَ بالتَّخلُّف لم تكُن بعيدًا عن الصَّواب، وذهابُ الرِّيح يعني ذهابَ القوَّة التي تَحمي الأرضَ والعِرْضَ، وذهابُ الرِّيح تَذهبُ معه الكرامةُ والأرضُ والعِرْضُ، والعبارةُ عن القوَّة بالرِّيح فيه إشارةٌ إلى أنَّ قوَّةَ الوطن شائعةٌ في أبنائه جميعًا وفي أرجائه كلِّها، وليست في عضو واحد منه ولا في جماعة واحدة.

قلتُ: إنَّ تأليفَ المختلف الشَّائع في كلام العلماء المراد به حراسةُ بنيان الأُمَّة من التَّصدُّع والتَّشقُّق والانهيار، وكلُّ نظام رشيد ومؤهَّل لأن يَسوسَ البلادَ والعبادَ، يَحرِصُ على تأليف المختلف ونزع أسباب الفُرقة، وجمع النَّاس على القُرب بدلَ البُعد، وعلى الحُبِّ بدلَ البغضاء، فإذا رأيتَ مَن يفعلُ ذلك فانتَظِر منه الخيرَ، وإذا رأيتَ من يَفعلُ خلافَ ذلك ويَتبنَّى سياسةَ: «فَرِّقْ تَسُدْ» فاحذَرْ منه؛ لأنَّ فيه رِيحًا من ريح العدو، الذي لا بقاءَ له بيننا إلَّا على حساب فُرقتنا واختلافنا وتمزُّقنا، وانظُرْ حولَك تَجِدِ الضَّياعَ والفقرَ والخرابَ مُقترِنًا بالتَّنازع والتَّصادم، وتعجَّبْ حين تَجِد النَّاسَ لا يَجِدون القُوتَ، ويَكثُرُ في أيديهم السِّلاحُ؛ يعني مُنِعَ عنهم سببُ الحياة الذي هو العيشُ، وأُعطُوا سببَ الموت الذي هو السِّلاحُ.

ولا شكَّ أنَّ الجميعَ يُحبُّون أوطانَهم؛ لأنَّ حبَّ الوطن من الفطرة، ولا شكَّ أيضًا أنَّه لا معنى لحبِّ

الوطن إلَّا حبَّ الإنسان الذي يعيشُ على تُراب هذا الوطن، وأنا لا أَشُكُّ لحظةً في أنَّ مَن يُريقُ دمَ أبناء الوطن على تراب وطنهم أو يُدمِّرُ كرامتَهم على أرضهم - ليس من الوطنيَّة في شيء؛ لأنَّ قطرةَ الدَّم أغلى من تراب الأرض، ولأنَّ الشَّعبَ هو قوَّةُ الدِّفاع الأولى عن الأرض، ولأن مَن يَقتُلُه إنَّما يَقتلُ قوَّةَ الذَّود عنه وقوَّةَ حمايته، وكأنَّه يُمهِّدُ ترابَ الوطن لاستيلاء العدو عليه، وهذه حقائقُ التَّاريخ التي لا شكَّ فيها.

ولم أَجِد كلمةَ تأليف المختلف تَشيعُ في كلام عالم من علمائنا، كما أَجِدُها تَشيعُ في كلام الباقلَّاني، وكان رجلَ عِلم ورجلَ دولة، شأنُه شأنُ كثير من العلماء، وكان يَبلُغُ نِهايةَ الدِّقَّة واللُّطف والبَراعة والحِذْق في تأليف المختلف، وكأنَّه كان يَسوسُ المعانيَ سياسةَ البصير بسياسة الشُّعوب، «ويَضَعُ المتنافراتِ في رِبْقة واحدة»، وهذه عبارتُهم

ومعناها: أنَّه يَربطُ المتنافراتِ في حبل واحد بعدما نفَثَ في عقد الخلاف فأزالَ شرَّها وأَودَعَ الأُلفةَ مكانَ الفُرْقَةِ، والمحبَّةَ أو الرِّضى مكانَ الشَّتات.

قلتُ: إنَّ هذا كَثُرَ عند الباقلَّاني، وأُكرِّرُ أنَّه موجودٌ في كلِّ الكتب وحولَ كل مسألة اختلَفَ فيها العلماءُ، ثمَّ هو موجودٌ عند غير علمائنا؛ لأنَّه من الفطرة وأنَّه لا يُطفِئ البغضاءَ بين النَّاس إلا سليمُ الفطرة، ولا يُشعِلُها إلَّا سيِّئُ الطَّبع خبيثُ الطَّويَّة ومَن نبَتَ في مَنبَت سوء.

وقد رأيتُ ذلك واضحًا وبصوت جهير في الكِتاب العزيز وكأنَّه يُنادِي في الكِتاب به ويُنادَي في الكتاب عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا﴾ [آل عمران: ٦٤]، وهذه من أعظم آيات الكِتاب، وكلُّها أعظمُ، وتعجَّبْ حين يأمُرُ ربُّنا جَلَّت حِكمتُه نبيَّنا -صلواتُ الله وسلامُه عليه- أن يُنادِي أهلَ الكتاب، ويملأَ الأرضَ بهذا

النِّداء، وهم الذين يُنكِرون نبوَّتَه ويُنكِرون ما أنزَلَه اللهُ عليه، ثمَّ يُنادِيهم بأحبِّ صفاتهم، وأنَّهم أهلُ التَّوراة التي هي إمامٌ ورحمةٌ، وأهلُ الإنجيل الذي هو إمامٌ ورحمةٌ، ثمَّ يقولُ لهم: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾، وتعالَوا من العُلُو؛ أعني: أَقبِلوا مُكَرَّمين، ثمَّ يقولُ لهم: نبحثُ معًا عما يُقرِّبُ خلافَنا، وليس هناك سبيلٌ لإزالة هذا الاختلاف، وإنَّما هناك سبيلٌ لإيجاد مساحة مشتركة تَجمُعُنا، وهي كافيةٌ في أن نعيشَ معًا متسالمين متعاونين، نحمي أوطانَنا وأعراضَنا.

راجِعِ الآيةَ أنت وانظُرْ إلى طبيعة الخلاف وأنَّها غيرُ قابلة لأن تُلغَى، ومع ذلك يُطالِبُنا ربُّنا بأن نبحثَ عن مساحة مشتركة بين المتخالفين ليَأتلِفوا وليعيشوا حياةً يأمَنُ بعضُهم بعضًا فيها؛ بل ويُساندُ بعضُهم بعضًا فيها، ثمَّ اسمَعْ ما يقولُه بعضُنا عن بعض وكيف يُوسِّعُ بعضُنا مسافاتِ الخلاف حتى بين ذوي الأرحام.

ومن الواجب علينا إن كنَّا صادقين في أنَّنا نعني مصلحةَ بلادنا، وليس مصلحةَ انتماءاتنا، أن نضَعَ كلَّ مسائل الخلاف تحت بصيرة أهل البصائر من العلماء؛ ليقولوا فيها القولَ الفَصلَ الذي نَلتزمُ به جميعًا، ثمَّ نَمضي جميعًا أيضًا في العمل الجادِّ الذي يَنقلُ البلادَ إلى حالة أفضلَ، وتتَّجهُ الطَّاقةُ كلُّ الطَّاقة إلى العمل المنتج، وليس إلى الصِّراع المدمِّر.



الشَّيخُ أحمدُ الشَّرَباصِيُّ

رجلٌ مضَى ومَثَلٌ مستمرٌّ(١)

كم شيَّعَت هذه الأُمَّةُ في تاريخها العامر الحافل من رجال، وكم دمَعَت عينُها الجليلةُ على شيوخ هم أجلُّ من الملوك جلالةً.

والآن حين تَذكرُ واحدًا من رجالها تبكي دمعةً أحَرَّ، ويَعتصِرُ قلبَها حزنٌ أوجعُ؛ وذلك لأنَّ ينابيعَها التي كانت تُمِدُّها بهؤلاء النُّجباء قد فقَدَت نَبْعًا، وأنَّ الحياةَ العِلميَّةَ والأدبيَّةَ التي كانت تُنضِجُ هذه المواهبَ قد انهدَمَ منها ركنٌ.

وليتَ شعري ماذا يكونُ حالُ الأُمَّة حين يقضي اللهُ في البقيَّة الباقية من أمثال هؤلاء الرِّجال قضاءه؟

---

(١) نشر في مجلة الأزهر رجب ١٤٠١هـ- مايو ١٩٨١م.

وكيف نرى ساحاتِ الوطنيَّة والفكر والأدب بعد هؤلاء؟

أيَّ حياة ستكونُ؟

تأمَّل ما يجري في معاهد العِلْمِ على مَدِّ هذه الأُمَّة العربيَّة الإسلاميَّة ترى شيئًا واحدًا هو انطماسُ كثير من معاني الجِدِّ، وذَهابُ كثير من رُوح الإخلاص، وخُفوت تلك الوقدة المقدَّسة التي كان يُشعِلُها في مدارسنا رجالٌ مخلصون يُنضِجون بها عقولَ ناشئة الأُمَّة، ويُفجِّرون بها كوامنَ طاقات أبنائها.

أصبَحَت أكثرُ دُور العِلْمِ سواءً في تخريج أفواج عديدة، ممَّن لا حظَّ لهم من العِلْمِ النَّافع والمعرفة البصيرة.

ولا رَيبَ أنَّ هذه المعانيَ تَجري في نفوسنا كلَّما ودَّعنا واحدًا من علمائنا ورجالنا الَّذين تَبقى أماكنُهم خاليةً بيننا، وأنَّه من الخيانة لهذه الأُمَّة أن نَحتَجِنَ هذا في صدورنا، ونحن وغيرُنا نراه رأيَ

العين، وقد أفضى الشَّيخُ أحمدُ إلى ربِّه، وصدرُه يَجيشُ بما يراه في دُور العِلْمِ، خاصَّةً في الأزهر الذي كان يعيشُ همَّه الشَّريفَ.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ شديدَ الوَلاء لأصول ثلاثة تتلاحمُ وتتداخلُ وتنتهي إلى أصل واحد هي إسلامُه وعروبتُه وأزهريَّتُه، وكان كثيرًا ما يقولُ بلسانه وقلمه إنِّي لعربيٌّ مسلم أزهريٌّ، وكان إسلامُه لا يُصحِّحُ فقهَه إلَّا عروبة قلبه ولسانه، ولا يَهديه السَّبيلَ إلى محض عروبة القلب واللِّسان إلَّا تراثُ الأزهر وحلقاتُ شيوخه.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يَعتقِدُ أنَّ حَصانةَ الأزهر وسرَّ قوَّته أنَّه لا يَترخَّصُ في إلزام بَنيه بحفظ القرآن وإجراء الاختبارات الشَّفويَّة لكلِّ طلَّابه في حفظ الكِتاب كلِّه، وكان الطَّالبُ يَتخرَّجُ من الأزهر وقد امتُحِنَ في القرآن كلِّه أربعَ عشرةَ مرَّةً، والذين دخَلوا الأزهرَ وهم لا يُحسِنون قراءةَ القرآن قراءةً مفصَّلةً

مرتَّلةً هم الذين فُضَّتْ بهم حُرمتُه وكُسِرَت بهم حَصانتُه التي استعصَت على الضِّغْن الأسود الذي أضمَرَته أحقابٌ طِوالٌ عانَتها هذه الأُمَّةُ وعاناها معها الأزهرُ.

ويرى الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ ضياعَ هذا العزيز الغالي من الأزهر يعني ضياعَ بهاء مصر وإطفاءَ نورها؛ لأنَّها عُرِفَت بالقرآن والأزهرِ. قال في ذلك:

«من الحقائق التي يَجِبُ أن تستقرَّ في أذهاننا وتُسيطرَ على إدراكنا أنَّ أعظمَ مفخرة لبلادنا هي أنَّها دارُ القرآن، وأنَّها بعزَّة القرآن تُساوي كلَّ شيء، وأنَّها دونَ القرآن لا تُساوي شيئًا.. وشهرةُ «مصر القرآن» بين العالمين هي أنَّ أبناءَها يَحفظُون القرآنَ العظيمَ ويَتلونَه عن ظهر قلب، ويَطَّلِعُ إليهم أبناءُ البلاد الإسلاميَّة الأخرى فيَعجَبون لهم كيف يستطيعُ هؤلاء الأذكياءُ الموفَّقون من أهل مصرَ العظيمة أن يُرتِّلوا القرآنَ حفظًا بهذا الأسلوب الكريم.. وكان

الشَّرطُ الأساسيُّ لقبول الطَّالب في المعاهد الدِّينيَّة الأزهريَّة أن يكون حافظًا للقرآن كلِّه، وأن يُمتحنَ فيه بلا تساهل ولا تسيُّب»[١].

تأمَّل قولَه: «بلا تساهل ولا تسيُّب»، كان اصطلاحُ الأُمَّة في تربية رجالها وعلمائها البدايةَ بحفظ القرآن تُفتَقُ به ألسنتُهم، وتتهيَّأُ به قلوبُهم، ثمَّ تدورُ حولَه جملةٌ من المعارف الشَّرعيَّة واللِّسانيَّة، ثمَّ يَنالون من أصناف العلوم الطَّبيعيَّة والحِكميَّة والفلسفيَّة ما ينالون، والمهمُّ أنَّه لا يكونُ فيها عالِمٌ بارعٌ في فرع من فروع المعرفة التي برَعوا فيها كعلوم التَّعدين، والصَّيدلة، والطَّبيعة والطِّبِّ، والبَيْطرة، والكيمياء، وهو يَجهلُ القرآنَ والاستمدادَ منه والاستشهادَ به، وكذلك كان قوَّادُها ووزراؤها ووُلاتُها.

وقد تعدَّدَت بحوثُ شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ وتنوَّعَ تراثُه، ودارَ حول أصلين أساسيِّين ارتبطَ قلمُه بهما منذ

---

(١) كتاب «توجيه الرسول»: ١٧٦، ١٧٧.

البداية، هما الكِتابُ والسُّنَّةُ، ويرى أنَّ ذلك من فضل الله عليه وأنَّهما بابا الإرشاد والإسعاد، وسببا النَّجاح والفلاح، ويَنبوعا البيان والأدب[١].

وقد بدأ نَبعُه يَتدفَّقُ منذ بَواكير عمره، وقد ألحقَ قائمةً مفصَّلةً بمؤلَّفاته بكتاب: «توجيه الرَّسول» الذي نشَرَه في سنة ١٩٧٤م، وقد بلَغَت كتبُه آنذاك سبعةً وسبعين كتابًا بدَأت رحلتُها سنةَ ١٩٣٦م بنشر كتاب: «حركة الكشف».

وقد خاضَ في هذه الكتب ميادينَ الأدب والتَّاريخ والدِّين والسِّياسة، ولا ريبَ أنَّ له فوقَ ذلك فَيْضًا زاخرًا من المقالات، وفَيضًا عامرًا من المحاضرات التي شارَكَ فيها في الملتقيات الفكريَّة والأدبيَّة في العواصم الإسلاميَّة العديدة، هذا إلى جانب طوفان من الأحاديث التي ألقاها في أرجاء مصرَ وفي مختلف أنديتها، والتي شارَك

(١) المرجع السابق: ١٠.

فيها في قضايا المجتمع والدِّين والسِّياسة، وكان كما قال هو في وصفه لعطاء شكيب أرسلان: «كالغيث الهاطل المدرار في كتاباته حتى تصعُبَ ملاحقتُه ومتابعتُه»، وقد استطاع رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُلاحقَ ويُتابعَ ما كتبَه الأميرُ، ودرَسَ ومحَّصَ ونقَدَ وغربَلَ وأخذَ وترَكَ، وليتَ شعري هل يتهيَّأُ لشيخنا دَيْدَبانٌ[1] دءوبٌ يُلاحِقُ ويُتابعُ ما درَّتْه سحائبُه، ويَعكُفُ عليها يَدرُسُها ويَفلِيها ويُغربِلُها ويقولُ ما لها وما عليها؟

عاشَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حياتَه كلَّها طالبَ عِلْمٍ؛ فقد طرَقَ بابَ كلِّيَّة اللُّغة العربيَّة طالبًا في دراساتها العليا بعدما تخرَّجَ منها بعشرين سنةً، وذكَرَ ذلك وهو يَعرِضُ مقدِّمةَ بحثه الذي أجازَه به العلماءُ، وأذكرُ أنَّه ارتجلَ هذه المقدِّمةَ، وكان موضوعُ البحث هو الشَّيخَ رشيد رضا، وذكَرَ أبوابَه وفصولَه ومقدِّماتِه ونتائجَه بطلاقة

---

(١) [أي: حارسٌ ورقيبٌ].

وتدفُّق وكأنَّه كان يقرأُ من كتاب، وكانت ليلتُه من اللَّيالي التي يُرى فيها الطَّالبُ مناكِبًا لأستاذه؛ بل ومُزاحِمًا ركينًا له في عِلْمِهِ وفقهه.

وكان ضمنَ المجموعة الأولى التي دخَلَت معهدَ الدِّراسات العربيَّة حين فتَحَ أبوابَه سنةَ ١٩٥٣م وقال: «ولم أَجِد أيَّ غضاضة في أن أكونَ صباحًا مدرِّسًا بالأزهر الشَّريف، وأن أكونَ بعد الظهر طالبًا في المعهد»[١].

وكان شيوخُ المعهد يَعرفون عِلْمَه وقَدْرَه، ويُخاطِبونه خطابَ الزَّميل والصَّديق، وهو يُخاطبُهم خطابَ التِّلميذ.

وقد شَهِدُوا له بالاكتمال والتَّفوُّق، ووجَّهوا طلَّابَ العلم إلى اتِّخاذه مَثَلًا في الصَّبر والتَّروِّي والاستنباط، وفي سلامة اللُّغة وصحَّة البيان وجزالته؛ قال الأستاذُ محمَّد خلف الله وكان عضوَ

(١) كتاب «شكيب أرسلان»: ٩.

لجنة مناقشته في درجة التَّخصُّص وذلك في مساء الثلاثاء ١٢ من شعبان سنة ١٣٨٢هـ، وكان وكيلًا لجامعة عين شمس قال: «أشكرُ لفضيلة الزَّميل أبي «مي» الأستاذِ الشَّرَباصي هذا العرضَ الجميلَ لرسالته، وأرجو أن يتَّخذَ منه طلبةُ العلم نموذجًا لما ينبغي أن يكون عليه تلخيصُ الرَّسائل العِلْمِيَّة، ولما ينبغي أن يكونَ عليه البيانُ العربيُّ القويُّ السَّمحُ، وليس هذا بكثير على الشَّيخ الشَّرباصي».

ثمَّ قال عن الرِّسالة: «والرِّسالةُ التي نُناقشُها رسالةٌ مُكتملةُ النُّموِّ تحقَّقَت فيها صفاتُ الرَّسائل العلميَّة الكاملة من سلامة القصد وسلامة المنهج، وسلامة البناء، وقد توفَّرَت لصاحبها أدواتُ النَّجاح مِن تمرُّس بالبحث والمناقشة، وفَهمٍ واعٍ لمرحلة النَّهضة وأحداثها السِّياسيَّة، وتيَّاراتها الثَّقافيَّة والرُّوحيَّة، توافَرَت لصاحبها هذه الأدواتُ جميعُها، ولو أَرَدنا دليلًا غيرَ هذه الرِّسالة لكان لنا أن نَلتمِسَه في كتب

أخرَجَها صاحبُ الرِّسالة، تُقارِبُ عددَ الماضي من سِنِي حياته المديدة إن شاء الله».

وقد ذكَرَ الأستاذُ الدُّكتورُ إسحاق موسى الحسيني وكان مُشرفًا على بحثه: أنَّ هذه الرِّسالةَ هي الأولى في موضوعها في هذا المعهد، ويَعتقدُ أنَّها كذلك في سائر الكُلِّيَّات والبلدان، ثمَّ ذكَرَ أنَّه يُثني عليه ثناءً لا حَدَّ له لأمور ثلاثة:

أوَّلُها: أنَّه جلَسَ مجلسَ الطَّالب بعدما استحصَدَ واحتَنَك، وأنَّه في هذا ماضٍ على سُنَّة السَّلف الصَّالح الذين رأَوا أنَّ طلبَ العِلم من المهد إلى اللَّحد.

وثانيها: تقبُّلُه للنَّقد وإيرادُ النَّظَر واستيعابُه لما يَرِدُ عليه من هذا، وإذعانُه للحقِّ حين يُدرِكُه.

وثالثُها: استقصاءُ المادَّة العِلْمِيَّة في موضوعه، وأنَّه لم يَترُك ناحيةً يُظلِّلُها أيُّ غَيم إلَّا جَلَّاها[1].

(١) ينظر مقدمة كتاب «شكيب أرسلان».

وكان الشَّيخُ رَحِمَهُ اللهُ كَلِفًا بمدرسة الإمام، وقد أخرَجَ عنها كتابًا في سنة ١٩٧١م بعدما كتَبَ عن أعلامها دراساتٍ مستفيضةً، وقد أخرَجَ عن شكيب أرسلان كتابينِ غيرَ رسالة الماجستير التي نشَرَها في جزءين.

ورجالُ هذه المرحلة -سواءٌ منهم مَن ينتمي إلى الإمام ومَن لم يَنتَم إليه- في حاجة إلى دراسات جديدة في ضَوء ما انكشَفَ من الحقائق التَّاريخيَّة والسِّياسيَّة ممَّا يُوجِبُ مراجعةَ الأحكام على كلِّ مَن سطَعُوا في ميادين السِّياسة والأدب والاجتماع والإصلاح.

والمهمُّ في سياقنا هو أنَّ الشَّيخَ رَحِمَهُ اللهُ كان دءُوبًا لا يَنِي في طلب العِلْمِ، وأنَّه أفاضَ بغزارة في شتَّى الميادين، حتى أنَّه كتَبَ في الفقه كتابًا من خمسة أجزاء، استمدَّ مادَّتَه من مطوَّلات كُتُبِ الفقه والتَّفسير والحديث، وقد استنبَطَ منها الحلولَ

الفقهيَّةَ لما يَجِدُه المسلمون من أقضية وحاجات، وهذه إحدى مزايا فقه الشَّيخ، ونرى أنَّ هذا الكِتابَ يضَعُه بين أهل الفُتيا من الفقهاء.

وكان كغيره من عُلماء الأزهر الذين ارتبَطَت عندهم علومُ التَّفسير والفقه والأدب واللُّغة والأخبار، حتى صارَت كلًّا متكاملًا، فلا سبيلَ إلى درس الفقه لمَن لم يَغمِس يدَيه في علوم اللُّغة والحديث والتَّاريخ، وهذه سُنَّةُ السَّلف، فقد رأَينا فقهاءَ يَطلبون عِلْمَ الفقه في كتاب سيبويه، وآخرين يَتلمَّسون التَّفسيرَ في كتاب: «المغني» لابن هشام النَّحوي، ورأَينا الشَّافعيَّ أديبًا غلَبَ عليه الفقهُ فعُرِفَ به، وذكَرَ بعضُ اللُّغويِّين أنَّه يُحتجُّ به في اللُّغة، وناهيك عن مرتبة الاحتجاج عند هؤلاء الأعلام، كما عرَفنا القاضيَ عليَّ بنَ عبد العزيز الجرجاني فقيهًا غلَبَ عليه الأدبُ فعُرِفَ به، وحسْبُه أنَّه قاضٍ، ولا يَلي مرتبةَ القضاء إلَّا مَن عَرَفَ كيف يَستنبِطُ الأحكامَ الفقهيَّة من النُّصوص الشَّرعيَّة، ولا

يكونُ كذلك إلَّا مَن برَعَ في الفقه والأصول والقياس.

وهذه الطَّريقةُ في تخريج العلماء والتي سلكَها شيوخُنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَسلُكُ الأزهرُ الآن في تخريج علمائه غيرَ طريقها؛ فتقطَّعَت في دروسه الوَشائجُ بين هذه العلوم، فصارَ درسُ الأدب لا نحوَ فيه، فضلًا عن أن يُمازجَه عِلْمٌ بالمصطلح والرِّواية ودراسة الأسانيد، وصار للحديث قسمٌ غيرُ قسم التَّفسير، وللفقه قسمٌ غيرُ قسم الأصول، وللبلاغة قسمٌ غيرُ قسم الأدب، وهذا مُجاراةٌ لما يجري عند غيرنا، وقد أَغفَلنا أنَّ التَّرابطَ بين العلوم اللِّسانيَّة والشَّرعيَّة في تُراث المسلمين شيءٌ فريدٌ ليس له ما يُشابِهُه في تراث الأمم، التي لم يَنزِل بلسانها شرعٌ من الله العزيز الحكيم.

وكان منبرُ المركز العامِّ للشُّبَّان المسلمين من المجالات التي أفرَغَ فيها الشَّيخُ كثيرًا من عطائه، وكان يَرتادُ هذا المنبرَ العديدُ من أهل العلم من

علماء الأُمَّة عربًا وغيرَ عرب، وقد أُتيحَ لنا من خلاله أن نَسمعَ ونرى الكثيرَ من المفكِّرين الذين كنَّا نَعرفُهم ولا نراهم، وكان الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يبدو قويًّا رَكينًا بين هؤلاء الأفذاذ، يُقدِّمُ ويُعقِّبُ بتدفُّق وذكاء وفِطْنة، وكأنَّه محيطٌ بالموضوع إحاطةَ المحاضر أو هو يَستعلي أحيانًا.

وكان لهذا المنبر وهجٌ لامعٌ، ولكنَّه لم يُضِف إلى الشَّيخ شيئًا، فقد ظهرَ ساطعًا وهو طالبٌ في معهد الزَّقازيق.

والذين يتعرَّضون لتاريخ مَن اتَّصَلَت حِبالُهم بالحاكمين في العالَم العربي لا بُدَّ لهم أن يُراجعوا كثيرًا في تقويم المواقف والحُكم عليها، وأن يَعتبِروا ما كان عليه حالُ الأُمَّة، وطرائقُ تصريف أمورها وسياستها، ثمَّ ما انبعثَ في نفوس هؤلاء الرِّجال من أَمَل مع بدايات النِّصف الثَّاني من هذا القرن أغراهم بالمساندة والتَّأييد، فلمَّا كان من

الأمر ما كان، فمنهم مَن نصَح ومنهم مَن سكَتَ، واللهُ أعلمُ بالسَّرائر.

والمهمُّ أنَّنا تعوَّدنا أن نَرميَ بالحَصى في وجه كلِّ مَن اتَّصَلَ بالحاكمين من العلماء، وهذا خطأٌ فإنَّ تاريخَ الرِّجال يُحدِّثُنا أنَّ العلماءَ كانوا يَنهضُون بواجب النُّصح لله ولرسوله، وإبداء الرَّأي، وأنَّ الحاكمين كانوا يَستمِدُّون سلطانَهم من العلماء والفقهاء؛ لأنَّهم أهلُ الحَلِّ والعَقْدِ، وليس لهم في ذلك إلَّا شرعُ الله ووجهُه، ويَحسُنُ بنا أن نَستمعَ الآن إلى الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ وهو يُحدِّثُنا في قضيَّة بيت المقدس وفلسطينَ.

فقد تعرَّضَ الشَّيخُ إلى دعوة حقوق اليهود في فلسطين، وقبلَ أن يَدحضَ أكاذيبَ يهود مُستمِدًّا من الكِتاب والسُّنَّة والتَّاريخ الصَّحيح اقتبَسَ من كتابينِ غربيِّينِ أحدُهما كتاب «فلسطين والغزو التَّتري الجديد» لباحثة أمريكيَّة، وقد جاء فيه: «العُملاتُ

النَّقديَّةُ التي ترقى في القِدَم إلى ما قبل ألوف السِّنين في فلسطين قد اكتُشِفَت، والقبورُ التي خلَّفَها الذين عاشوا في عصر موسى وقبلَ عصر موسى في فلسطين أيضًا قد فُتِحَت واكتُشِفَت محتوياتُها جميعًا، فلم يُعثَر في جميع هذا الذي اكتُشِفَ على دليل واحد أو إشارة بسيطة تُخبِرُنا عن وجود ما يُسمَّى بأُمَّة يهوديَّة في تلك الأيَّام مطلقًا؛ فإنَّ كلَّ ما يتعلَّقُ بهذه الأُمَّة المزعومة غيرُ موجود في فلسطين».

والثَّاني في كتاب: «مركز المدنيَّة القديمة» للأستاذ دونت قال: «لم يُعثَر على كتابة قديمة واحدة في فلسطين من شأنها أن تدُلَّ على وجود مملكة عبريَّة، ولقد فشِلَت جميعُ الآثار التي اكتُشِفَت في القدس وعجَزَت عن تقديم أثر واحد يدُلُّ على سليمان وداود.

إنَّ اليهودَ بحاجة إلى الدَّليل الذي يؤيِّدُ وجودَهم بين قوميَّات آسيا الغربيَّة القديمة، والإغريقُ في

أيَّامهم الأولى لم يُشيروا بكلمة واحدة إلى اليهود، فلو كانت فلسطينُ وطنًا لهم في تلك الأيام؛ لكان هؤلاء اليونانُ القدامي على اتِّصال بهم، إنَّ هوميروس لا يَعرِفُ عنهم شيئًا مطلقًا»[١].

ولمَّا أرجَفَت الصُّهيونيَّةُ بالقول بأنَّ العربَ افتَعَلوا قداسةَ بيت المقدس وأدخَلُوا ذلك على الإسلام لمَّا ظهرَ الصِّراعُ بين العرب واليهود؛ وذلك لينضمَّ المسلمون إليهم في هذا الصِّراع - كتَبَ الشَّيخُ عن الكُتب التي أُلِّفَت في بيت المقدس قبلَ نُشوب هذا الصِّراع بمئات السِّنين، وذكَرَ من ذلك كتابَ: «فضائل القدس» للإمام ابن الجوزي (المتوفَّى سنةَ ٥٩٧هـ)، وكتابَ: «الأُنس في فضائل القُدس» لابن هِبَة الله الشَّافعي، وهو من رجال القرن السَّابع الهجري، وكتابَ: «مِنبر الغَرام بفضائل القُدس والشَّام» لابن سُرور المقدسي (المتوفَّى سنةَ

(١) كتاب «يسألونك»: ١/ ٥٣٧.

٧٦٥هـ)، وكتابَ: «الأُنس الجليل بتاريخ القُدس والخليل» لمجير الدِّين الحنبلي القاضي (المتوفَّى سنةَ ٩٢٧هـ)، وكتابَ: «الجامع المستقصَى في فضائل المسجد الأقصى» لابن عساكر (المتوفَّى سنةَ ٩٤٨هـ)، وكتابَ: «فضائل القدس» للشَّريف عزِّ الدِّين حمزة (المتوفى سنةَ ٨٧٤هـ) وغير ذلك من الكتب[١].

وقد خاطَبَ الشَّيخُ أُمَّتَه بقوله: «القُدس وما حولَها من أرض فلسطين هي أرضٌ من ضميم وطن المؤمنين، فلا يجوزُ لهم بحال من الأحوال أن يَتهاوَنوا في أمرها أو يَستخِفُّوا بمكانتها، أو يَترُكوها لدَخيل يَعتدي عليها أو يستبِدُّ بأمرها، فدُونَ ذلك يَجِبُ أن تُزهقَ الأرواحُ، وتَفنى الأشباحُ»، ويَذكُرُ ما رواه أبو هريرة من قول الرَّسول ﷺ: «**لا تزالُ عصابةٌ من أُمَّتي يُقاتلون على أبواب دمشق، وعلى**

(١) ينظر المرجع السابق: ١/ ٥٧٤، ٥٧٥.

أبـواب بيـت المقدس وما حولـه، لا يَضُرُّهم خُذلانُ مَـن خذَلَهـم، ظاهريـنَ علـى الحـقِّ إلـى أن تقـومَ السَّاعةُ»(١).

ويُعلِّقُ على هذا بقولـه: «ما أعمقَ الإشـارةَ التي ينطوي عليها هذا الحديثُ، والتي تحثُّ على صدق الجهاد ومداومة النِّضال من أجل هذه المقدَّسات!»(٢).

وكان الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ صادقَ القرب والودِّ لكلِّ مَن يظُنُّ به خيرًا من طلَّاب العِلْمِ وكان ذا فراسة بارعة في التَّعرُّف عليهم، وذا قدرة فائقة في استنهاض العزائم وبعث الكوامن، وكان لبيانه الصَّحيح الجَزْلِ العذب ولرَنَّة لغته أثرٌ بالغٌ في نفوس طلَّابه، وأشهدُ أنِّي ما سمعتُ لسانَه يدورُ بالعاميَّة لا في درس ولا في محاورة ولا في أوقات فراغ.

---

(١) [أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦٤١٧)، والطبراني في المعجم الأوسط (٤٧)].

(٢) ينظر كتاب «توجيه الرسول»: ٢٨٤، ٢٨٦.

وكان يرى أنَّنا إذا دخَلنا كلِّيَّةَ اللُّغة العربيَّة فلا يجوزُ لنا أن تدورَ ألسنتُنا بغير العربيَّة الصَّحيحة، ولا يجوزُ أن يُسمَعَ بها كلامٌ من طالب أو أستاذ إلَّا أن يكونَ صحيحَ الإعراب وذا رَوْنق.

وقد صنَعَ بيَدَيه الكثيرَ ممَّن يَعرِفُهم النَّاسُ، وكان لا يَعنيه أن يَعرِفَ هؤلاء فضلَه أو يُنكروه، شأنُه في ذلك شأنُ الأستاذ الذي يَعرِفُ بحقٍّ أستاذيَّتَه، وأنَّه لا بُدَّ أن يَترفَّعَ على أخطاء التِّلاميذ، وكان يهتمُّ بأهل العِلْمِ من طلَّاب الدِّراسات العليا اهتمامًا خاصًّا، ويُعرِّفُهم بموضوعات بحوثهم، فهذا أخو «الطِّيبي»، وذلك أخو «الخليل»، وهذا «جارُ الله»، وكان يَستمعُ إلى مناقشتهم باهتمام ويُراجِعُ ما يَكتُبون، ويَشعرُ كلُّ واحد منهم أنَّه انتفَعَ بما قرأَ له، وكان لهذا أثرُه الحميدُ في نفوس الطُّلَّاب، وكان ذلك منه لكلِّ طالب يظنُّ أنَّه عنده شيءٌ سواءٌ كان من الدَّارسين في قِسمه أو لم يكُن، وسواءٌ كان ممَّن يُشرِفُ على

بحوثهم أو لم يكُن.

وكان للطُّلَّاب الوافدين عند الشَّيخ منزلةٌ خاصَّةٌ؛ حيث كان يَمنَحُهم جميعًا قُربًا أكثرَ، ووُدًّا أشملَ.

جعلَ اللهُ ذلك كلَّه في مَوازينه وضاعَفَ له أجرَه، وحَطَّ عنه بكلِّ كلمة كتبَها وألحَقَه بالصَّالحين، وألحَقَنا بهم غيرَ مخذولين، وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمَّد وعلى آله ومَن تَبِعَهم بإحسان.



معذرةً إليكَ يا شيخَ الأصحاب[1]

لم يأخُذِ التَّاريخُ على أبي بكر مأخذًا، وقد أحبَّه المسلمون جيلًا بعد جيل لِحُب رسول الله ﷺ له؛ فقد كان إلْفَ رسول الله ﷺ وأُنْسَه، وموضعَ سِرِّه، وكان منه بمنزلة السَّمع والبصر، كما جاء في كلام عليٍّ رضي الله عنه وهو يَذكُرُ مناقبَ أبي بكر، وأنَّه أكثرُ الأصحاب مناقبَ، وأشدُّهم يقينًا، وأخوفُهم لله، وأَحوطُهم لرسول الله ﷺ، وأكثرُهم غَناءً في دِين الله، كان رضوانُ الله عليه متميِّزًا كالشِّهاب بين الغُرِّ المُحجَّلين رضوانُ الله عليهم جميعًا، ما يزالُ صالحًا مُصلِحًا لا يأسَى على أمر فاتَه من أمور الدُّنيا، وكان أشبهَ الأصحاب برسول الله ﷺ سَنَنًا وهَديًا، ورحمةً وفضلًا، وكانت هذه الأخيرةُ حسْبَه

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي، ذو الحجة، ١٤١٤هـ.

من الفضائل رضوانُ الله عليه[١].

وقد فُوجِئنا بكلام غريب يُنشَرُ عن الصِّديق -رضوانُ الله عليه- يَرمي في وجهه الكريم ويتَّهِمُه بشناعات؛ كذبًا وتلفيقًا وبهتانًا، ولسنا هنا في موقف الدِّفاع عن أبي بكر؛ لأنَّ تاريخَه النَّاصعَ وصحبتَه الشَّريفةَ، وما له من مَذخور الحُبِّ والتَّقدير في صدور المؤمنين، بعضُ ذلك يكفي في دَحْض هذا الباطل، وبيان زَيْفه وضلاله.

والمهمُّ عندنا هو بيانُ أنَّ الهجومَ على أصحاب رسول الله ليس هجومًا على شخصيَّات تاريخيَّة فحسْبُ؛ لأنَّ هؤلاء الأصحابَ -رضوانُ الله عليهم- لهم خصوصيَّةٌ ليست لغيرهم من رجالات التَّاريخ، وهي أنَّهم هم الذين نقَلُوا إلينا الدِّينَ، وأخذناه عنهم

(١) ينظر كتاب: «إعجاز القرآن» للباقلاني، خُطبة لسيِّدنا الإمام علي -كرَّمَ اللهُ وجهَه- التي خطَبَها يومَ قُبِضَ أبي بكر، وهي من كلامه الرَّفيع: ١٤٣، طبعة دار المعارف.

عن رسول الله ﷺ، والتَّشكيكُ فيهم تشكيكٌ فيما نَقَلُوه إلينا وأخذناه عنهم، وهذا من أشدِّ المَعاول ضربًا في عقائد المسلمين.

ولهذا شدَّدَ رسولُ الله ﷺ النَّكيرَ على إطلاق ألسنة السُّوء فيهم رضوانُ الله عليهم، وجعَلَ إيذاءَهم إيذاءً له، ومن هنا وجَبَ أن نَرصُدَ بأمانة وصدق كلَّ ما يُكتَبُ عنهم رضوانُ الله عليهم.

وأوَّلُ هذه الشَّناعات التي كُتِبَت عن الصِّديق أنَّه رضي الله عنه اغتصَبَ حقوقَ النَّبي ﷺ -وهذا لفظُ الكاتب- وبيانُ هذا الاغتصاب في حروب الرِّدَّة التي سمَّاها المؤلِّفُ: «حروبَ الصَّدقة»؛ لأنَّ هؤلاء مانعي الزَّكاة لم يكونوا مُرتدِّين وإنَّما «ظلُّوا متمسِّكينَ بدينهم مُقيمينَ لشعائره»، وامتنَعوا عن دفع الصَّدقة؛ لأنَّها كانت خاصَّةً برسول الله ﷺ لا يجوزُ لغيره أن يُحصِّلَها، ولأنَّها كانت في مقابل صلاته ﷺ عليهم، وذلك بصريح لفظ الآية

-هكذا يزعم- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولكنَّ أبا بكر لم يُعجِبْه هذا التَّفسيرُ المستقيمُ وتحكَّمَ هو في تفسير الآية[1]!! ورأى أنَّ واجبَه أن يُحصِّلَ منهم هذه الصَّدقةَ، فإذا امتَنَعوا حارَبَهم، وكان هذا انحرافًا خطيرًا في سلوك أبي بكر، وفي مسيرة التَّاريخ الإسلامي؛ وذلك لأنَّ أبا بكر استبَدَّ بتفسير الآية، وكان عمر يرى رأيَ هؤلاء المانعين!! وأنَّ الصَّدقةَ خاصَّةٌ بالنَّبي ﷺ، ولا يجوزُ لأبي بكر أن يُطالبَ بها، ولا أن يُحاربَهم بسببها، فعارَضَ موقفَ أبي بكر، ولكنَّ أبا بكر انتهَرَه، وقال له: «أجَبَّارٌ في الجاهليَّة خَوَّارٌ في الإسلام».

وهذه العبارةُ فيها تجاوزٌ؛ لأنَّ عمرَ لم يكُن حديثَ عهد بجاهليَّة، وإنَّما كان له في الإسلام آنذاك أكثرُ

(١) ينظر: كتاب «الخلافة الإسلامية» للمستشار محمد سعيد العشماوي: ١٠٥ وما بعدها، دار سينا للنشر.

من عشر سنوات، وبهذا الأسلوب سَنَّ أبو بكر في تاريخ الخلافة سُنَّةً من سنن الاستبداد(!) وهي أن يَنهرَ الخليفةُ وزيرَه أو مُشيرَه حين لا يَخضعُ لرأيه، ولا يوافقُه على ما تفرَّدَ به من تفسير القرآن، وتَحَكَّمَ به في معناه، وقد أثمَرَت كلمةُ أبي بكر ثمرَتَها؛ لأنَّ عمرَ قال بعدها: «ثمَّ شرَحَ اللهُ صدري لما قاله أبو بكر»، وعمرُ لم يُعبِّر عن نَفْسه بصدق في كلمته هذه، وإنَّما وافَقَ أبا بكر؛ «ليدفعَ عن نفسه تُهمةَ الخَوَر، أو حتى لا يُحدِثَ انقسامًا في صفوف المسلمين»، وليس بالقطع أنَّ اللهَ شرَحَ صدرَه كما قال!

وهذا الكلامُ يوشِكُ أن يكونَ بلفظ الكاتب، مع حرصنا على حذف بعض الألفاظ الأكثر قُبْحًا، مثلَ قوله في وصف أعمال أبي بكر: إنَّها كانت «مُنقلَبًا سيِّئًا انحدَرَت إليه الخلافةُ، عبرَ تاريخها منذ خلَطَ أبو بكر بين حقوق النَّبي الخاصَّة به وحدَه، كالحقِّ في اقتضاء صدقة من المؤمن، وبين حقوقه هو كخليفة،

وبه اضطرَبَ الحاجزُ بين ما للنَّبي وما للنَّاس، واهتزَّ الحاجبُ بين حقوق النَّبي وحقوق الرُّؤساء، سوَّغَ أبو بكر لكلِّ حاكم أن يستقلَّ بتفسيره الخاصِّ لآيات القرآن، ثمَّ يَفرِضَه بالقوَّة والعنف على المؤمنين، ويَجعلَ من رأيه الشَّخصي حُكمًا دينيًّا، ومن فَهمه الفردي أمرًا شرعيًّا».

ويؤكِّدُ الكاتبُ أنَّ حربَ مانعي الزَّكاة كانت حربًا موجَّهةً من مسلمين إلى مسلمين، ومن مؤمنين مصلِّين ضدَّ مؤمنين مصلِّين، وأنَّ وجهةَ نظرهم في تفسير الآية، وأنَّ الصَّدقةَ خاصَّةٌ بالنَّبي كانت هي الصَّوابَ؛ لأنَّها الموافقةُ لصريح لفظ الآية وواضح نصِّها، وأنَّ ما انفرَدَ به أبو بكر من الفَهم للآية كان لا يجوزُ أن يُفتحَ به بابُ الشَّرِّ الذي فتَحَه؛ لأنَّه قَنَّنَ حربَ المسلم للمسلم، وفتَحَ بابَ قطع المسلمين بعضِهم أعناقَ بعض، وظلَّ هذا الشَّرُّ مُستطارًا في طُول التَّاريخ الإسلامي، وعرْضِهِ إلى اليوم، وإنَّما

فتَحَه أبو بكر!

وكأنَّ الكاتبَ له ثأرٌ عند الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّه أوَّلُ خليفة لرسول الله ﷺ، والكاتبُ متَّجِهٌ في كتابه إلى بيان أنَّ الخلافةَ ليست من الدِّين في شيء، وأنَّها نظامٌ جاهليٌّ غَشُومٌ، يقومُ على التَّخلُّف، والسَّطو والسَّيطرة، والغُشومة، والظُّلم، والاستبداد، والتَّنكُّر لحقوق الإنسان، إلى آخره، فكان لا بُدَّ من تزييف الحقائق والوقائع والمواقف للوصول إلى هذه الغاية.

والحقيقةُ هي أنَّ القومَ جحَدوا الزَّكاةَ، وفسَّروا الآيةَ كما يراها المؤلِّفُ، ولكنَّ الأُمَّةَ أجمَعَت على فساد تفسيرهم، وأبو بكر لم يكُن له في الآية الكريمة فَهمٌ خاصٌّ به، وإنَّما هو إجماعُ الصَّحابة، وأنَّ عمرَ إنَّما تردَّدَ أوَّلَ الأمر خشيةً على المسلمين أن تأكلَهم الحربُ، فقد صارَت الرِّدَّةُ شرًّا مُستطارًا في قبائل نجد (أسد وغطفان وغيرهم)، وهم قومٌ أولو بأس، أمَّا أن يكونَ له رأيٌ في الآية يخالفُ رأيَ أبي بكر

فهذا من الكذب العريان، قال الشَّيخُ الإمامُ محمَّد عبده في تفسير الآية: «اعتقدَ بعضُ مانعي الزَّكاة من أحياء العرب أنَّ دفعَ الزَّكاة إلى الإمام لا يكونُ، وإنَّما كان هذا خاصًّا بالرَّسول ﷺ، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقد ردَّ عليهم هذا التَّأويلَ وهذا الفَهمَ الفاسدَ أبو بكر الصِّديقُ وسائرُ الصَّحابة»، ثمَّ قال: «وهذا مشهورٌ ومُجمَعٌ عليه»(١).

وكلُّ كُتُب التَّفسير تقولُ هذا، وهو إجماعٌ لم يَنخَرِم برأي مخالفٍ، ولكنَّ الحرصَ على التَّشهير، والحرصَ على التَّدليس دعا إلى ما كُتب.

ولم يَكتَفِ المؤلِّفُ بهذا وإنَّما أضافَ سببًا آخَرَ لحروب الصَّدقة، وهو أنَّ أبا بكر كان يُدرِكُ بخبرته ما استخلَصَه المؤرِّخُ الإنجليزيُّ «جوستاف لوبون» من أنَّ سيوفَ العرب لا بُدَّ أن تظلَّ مُشهَرةً، فإذا

---

(١) «تفسير المنار»: (٦/ ٢٠).

وجدتَ عدوًّا اتَّجَهَت إليه، وإلَّا توجَّهَت إلى صدور العرب أنفسهم، وأبو بكر فَهِمَ هذا وأحكَمَه فوجَّهَ سيوفَ العرب إلى العرب في هذه الحروب، وإلَّا توجَّهَت إلى الخلافة.

ولم يَكتفِ المؤلِّفُ بهذا وإنَّما أضافَ أنَّ ما سُمِّي بالفتوحات الإسلاميَّة إنَّما كان المقصودُ به أن تُشغلَ سيوفُ العرب بغير الخلافة، وأنَّ الفتوحاتِ أو الغزوَ لم تَخدِمِ الإسلامَ، وإنَّما أساءت إليه؛ لأنَّ الشُّعوبَ التي فُتِحَت بالغزو لم تَدخُل في الإسلام إلَّا بعد زمن، ولو أنَّ المسلمين لم يتَّخِذوا المنهجَ العسكريَّ سبيلًا للدَّعوة لكان هذا أفضلَ وكان أثرُه أعظمَ.

وهكذا يصيرُ أبو بكر في كتابات الكاتب مُعتنقًا للفلسفة (الميكيافيلية) التي تُبرِّرُ الغاياتُ فيها الوسائلَ، ويصبح واحدًا من السياسيِّين الانتهازيِّين، أمَّا الدِّينُ والشَّريعةُ فلم يَعُد لها حسابٌ عند أبي بكر (!) ومثلُ هذا قاله في عمر وعثمان وعليٍّ وعبد الله بن عبَّاس

ومعاوية وغيرهم، لم يترُك صحابيًّا إلَّا رمَى في وجهه بجهالة وحقد، وكأنَّهم أعداؤه، ولكلٍّ واحد من هؤلاء مقامٌ نَذكُرُه فيه إن شاء الله.

ثمَّ كتَبَ عن علاقة اليهود برسول الله ﷺ والدَّولة الإسلاميَّة، وهنا يقولُ كلامًا يَجِبُ إحكامُ فَهمه وتحليله ومقارنته بما قاله عن صحابة رسول الله ﷺ، هذا الكلامُ هو تبرئةُ ساحة اليهود من العداوة للإسلام، وبيان أنَّهم (استبشَروا) بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومَدُّوا أيديَهم له مُعتقدينَ أنَّ الأصلَ أن تكونَ علاقتُه بهم أقوى من علاقته بأهل يثربَ؛ لأنَّهم أهلُ كتاب، والأوسُ والخزرجُ مشركون، وهذا مستقيمٌ (!).

ولكنَّ رسولَ الله ﷺ فرَضَ عليهم الدُّخولَ في الإسلام (تأمَّل)، وبالطَّبع هم يَرفضون ذلك؛ لأنَّ الأنبياءَ عندهم من بني إسرائيل، وتوجُّه الرَّسول لتوحيد الشَّرائع في شريعة واحدة كان قد سُبق

بنموذج في التَّاريخ العبري (تأمَّل) هي أنَّ الملكَ اليهوديَّ (يوحنان هور كانوس) أرغمَ الأروميِّين على اعتناق اليهوديَّة(١).

وهكذا مضى المؤلِّفُ في تبرئة ساحة اليهود وإعلاء شأن رجالهم، حتى أنَّ الملكَ (يوحنان) كان نموذجًا في توحيد الشَّرائع واحتذاه النَّاس، وبعدَ ذلك في نَفْس الصَّفحة يقولُ: إنَّ محمَّدًا كان متَّجِهًا إلى توحيد الشَّرائع، ثمَّ إنَّ محمَّدًا هو الذي عاداهم وهم كانوا مُستبشرين به.

وهذا هو منهجُ اليهود في كتابة التَّاريخ الإسلامي، وذلك حين يَكتُبُ اليهودُ لليهود والمسيحيُّون للمسيحيِّين، ولم يكتُب كاتبٌ يهوديٌّ كتابًا يَنشُرُه في المسلمين في تاريخ الإسلام والصَّحابة بهذه الصُّورة القبيحة، وكذلك لم يَفعَل كُتَّابُ المسيحيَّة؛ لأنَّهم

(١) ينظر: كتاب «الخلافة الإسلامية»: ٥٩ وما بعدها، لمؤلفه المستشار سعيد العشماوي.

يَعلَمون أنَّ المسلمين يَعرِفون تاريخَهم ورجالَهم، وأنَّ هذا الباطلَ لن يَروجَ عنهم، وفيهم مع ذلك بقيَّةٌ من حِكمة تَعصِمُهم من هذا التَّدليس الظَّاهر، وإنَّما كتَبوا هذا لأبناء دينهم من اليهود والنَّصارى؛ لأنَّهم يَجهَلون الإسلامَ وتاريخَه ورجالَه، والمهمُّ عندَهم الدِّعايةُ المضادَّةُ للإسلام والشَّرق والمسلمين، وصارَ هذا الكلامُ يَكتُبُه عربٌ مسلمون لعرب مسلمين(!)، والكِتابُ -كما قال مؤلِّفُه- طُبِعَ طبعاتٍ خاصَّةً لبعض الدُّول العربيَّة(!) وتُرجمَ إلى لغات كثيرة، ومِثلُه لا بُدَّ أن يُترجَمَ، ولهذا كان سكوتُنا عما فيه عجزًا عن الدِّفاع عن حُرماتنا ورجالنا وتاريخنا، ونعوذُ بالله من العجز، وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمَّد وعلى أصحابه ومَن تَبِعَهم بإحسان.

❃❃❃

التُّراثُ حركةُ تأمُّل وإبداعٍ[1]

لا رَيبَ أنَّنا لم نَقطَع مسافةً طويلةً في الطَّريق الذي بدَأناه يومَ أن فاجأتنا أممُ الغرب بنهوضها السَّاطع المبهر، وكان يَجِبُ أن يكونَ سعيُنا في هذا المضمار أوسعَ وأسرعَ؛ وذلك لأنَّ أثقالَ التَّخلُّف التي كانت تَرزحُ تحتها أممُ الغرب كانت أفظعَ وأهولَ ممَّا قيَّدَ حركتَنا، وأطفأَ جَذْوتَنا في عصورنا الأخيرة.

فالموروثُ الحضاريُّ لدَينا يَختلفُ اختلافًا عظيمًا عن الذي كان عند غيرنا، فقد كانت ظلمةُ الحياة هناك ظلمةً غاشمةً جاهلةً، حتى كان الفكرُ في بعض مراحل القوم إثمًا مبينًا، وكان العلماءُ المُبدِعون يُتَّهَمون بالسِّحر الأسود، ويُمثَّلُ بهم جزَّاءَ

(١) مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٢٤٧، ص ٤٠.

فكرهم وإبداعهم، وربَّما يُحرَقون، ولم يَحدُث شيءٌ من هذا في تاريخنا كلِّه حتى في الجاهليَّة قبل الإسلام، فلم يكُن الفكرُ في يوم ما جُرمًا، وإنَّما كان فضيلةً، وكان الاجتهادُ الواعي -ولا يزالُ- طريقَ تحصيل الخير في الدُّنيا والآخرة، وفي الوقت الذي كانت محاكمُ التَّفتيش فيه تُشعِلُ النَّارَ في عقول العلماء من الكيميائيِّين والطَّبيعيِّين - كان العالِمُ المبدعُ عندنا يُلقَّبُ بالشَّيخ الرَّئيس أو الإمام، ويُفسَحُ له في مجالس العِلية، ويُعدُّ واحدًا من سَرَاة[1] القوم.

إذَن ما هي العِللُ التي خذَلَتنا وأتاهَت من أقدامنا الطَّريقَ؟ والجوابُ المفصَّلُ عن هذا السُّؤال المهمِّ يقتضي تحليلَ هذه المرحلة تحليلًا يَشملُ كلَّ صور الحياة العربيَّة والإسلاميَّة، وهو ممَّا يَجِبُ أن تتوفَّرَ عليه الجهودُ، حتى نستطيعَ أن نشخِّصَ هذا الدَّاءَ، وأن نحدِّدَ هذا البلاءَ الذي يبدو في الحياة العربيَّة

---

(١) [أي: سادتهم وأشرافهم].

كأنَّه قوَّةٌ خفيَّةٌ تَجذِبُها دائمًا إلى الوراء، وتَدفعُ عزيمتَها دائمًا إلى غير الجهة التي تُنصَبُ نحوَها.

وسوف أُشيرُ هنا إلى واحدة تتَّصِلُ بهذه العِلل اتِّصالًا وثيقًا، وهي اختلالُ الرُّؤية عندنا في مسائلَ، ما كان ينبغي أن نَختلفَ فيها، وتلك هي مواقفُنا من التُّراث.

وهذه القضيَّةُ كانت من أوائل القضايا التي خاضَ فيها رجالُنا منذ بدء النَّهضة، وهم من يومئذٍ يَنقسِمون في هذا الأمر إلى فريقين:

فريقٍ يرى: نَبذَ هذا الماضي، وهذا التَّاريخ، وهذه العلوم، والأخذَ بأسباب الحضارة الغربيَّة، حتى نَصِلَ في بلادنا إلى ما وصلَ إليه القومُ في بلادهم.

وفريقٍ يرى: أنَّ انطلاقَنا يَجِبُ أن يبدأَ من قلب هذا التَّاريخ وقلب هذا التُّراث، وأنَّ هذا أمرٌ لا مَحيدَ لنا عنه، وإذا كان غيرُنا قد نبَذَ تراثَه وتاريخَه -وهذا

لـم يَحـدُث- فـإنَّ تراثَنا يَختلِفُ عن تـراث غيرنا؛ لأنَّه يـدورُ حـولَ كلام الله وكلام رسـول الله ﷺ، ولذلك نَعتبرُ الدَّعـوةَ إلـى تخليتـه فـي حُكـم المنـاوأة لديـن الأُمَّـة الـذي ارتضـاه لهـا ربُّهـا، وأتـمَّ به نعمتَـه عليها.

وظهـرَ فريـقٌ ثالـثٌ يدعـو إلـى الوسـطيَّة، وهـذه الدَّعـوةُ فـي كثير من صورهـا تَميلُ ميـلًا واضحًا إلى تخلية التُّراث، وتكتفي بقبَسَات منه، إرضاءً لمشاعر المسلمين الذين هم مرتبطون أوثقَ ارتباط بتاريخهم ورجالهم وعلمائهم وعلومهم، وهذه الوسطيَّةُ عند كثير من أهل التَّحقيق أخطرُ من الدَّعوة التي وصِفَت بأنَّها متطرِّفةٌ؛ وذلك لأنَّ دعوةَ المتطرِّفين تُواجَه بقوَّة وعناد من جمهرة المثقَّفين المسلمين، في الوقت الذي استطاعَت فيه دعوةُ الوسطيَّة الباهتة أن تكتسِبَ جماهيرَ أوسعَ، فاضطُرَّ كثيرٌ ممَّن عُرفوا بالموقف الأوَّل أن يَنحازُوا إلى هذه الوسطيَّة؛ ليَكتسِبَ كلامُهم قَدْرًا من القبول عندَ النَّاس.

وهذه المواقفُ الثَّلاثةُ التي تُمثِّلُها مقالاتٌ كثيرةٌ، فاضَت بها الصُّحفُ والمجلَّاتُ العربيَّةُ، منذ العِقد الأوَّل من القرن العشرين، لا تزالُ هي بملامحها الأساسيَّة مع ملاحظة ما قلناه من أنَّ كثيرًا ممَّن كانوا يَدعون إلى نَبْذ هذا التُّراث قد دخَلُوا في فريق الوسط.

وعلى مَدِّ هذه السِّنين المتطاولات يوصَفُ المحامون عن التُّراث وصفًا واحدًا جائرًا ظالمًا، وهو أنَّهم يَدعون قومَهم إلى الحفظ واستيعاب مقالة الأوائل ثمَّ لا غير، وأنَّهم يُريدون أن تكونَ عقولُنا أوعيةً ومخازنَ لعلوم القدماء، وكان اللهُ يُحبُّ المحسنين.

أقولُ: إنَّ هذا التَّصوُّرَ لا يزالُ يَحكُمُ أقلامَ الكاتبين على كثرة ما كُتِبَ في هذا، ولا تكادُ تخلو صحيفةٌ أو مجلَّةٌ تُعالجُ هذا الأمرَ من كلام كهذا، وهذا عجيبٌ جدًّا وآيةٌ بيِّنةٌ من آيات العُقم للبيئات التي نعيشُها.

والغريبُ أنَّ أحدهمَ وهو من أوسع كُتَّابِنا ثقافةً، وأرحَبِهم ساحةً، وأَنداهم صوتًا، رمزَ إلى هذا القول الخاطئ الذي يَعتقِده صوابًا برمز لطيف في مقال قريب نشَرَته جريدةُ الأهرام، هذا الرَّمزُ هو صورةٌ تحدِّدُ ملامحَ إنسان يَصلُحُ أن يكونَ رجلًا، وأن يكونَ امرأةً، وقد تكوَّنَت الصُّورةُ من حروف أبجديَّة؛ يعني الإنسانَ الذي هو صيغٌ وألفاظٌ صمَّاءُ، وليس فيه بَصِيصٌ من نور الفكر، مع أنَّ الكاتبَ لا يخلو كلامُه من الإشارة الذَّكيَّة التي تَجعلُ القارئَ يَتوهَّمُ أنَّه متعاطفٌ مع التُّراث.

وواضحٌ أنَّ هذا التُّراثَ كان غُصَّةً حرجةً لا تُستساغُ البتَّةَ عند فريق من المستشرقين الذين لم يُعرَفوا بإخلاصهم للعِلْمِ، ولم يُعرَفوا بموضوعيَّتهم في البحث، من أمثال: «جب، ورينان، ومرجليوث»، وأنَّهم كانوا يَعلمون عِلْمًا ظاهرًا أنَّ هذا التُّراثَ سِياجُ هذه الطَّبائع الإسلاميَّة المتأبِّية على ما كانوا يُريدونه

من تقبُّل المسلمين لأنماط حضارتهم وثقافتهم، والاندماج فيها، وواضحٌ أنَّ فريقًا من النَّصارى أعلَنوا كراهيَّتَهم البغيضةَ للتُّراث، واعتبَروا الوَلاءَ له مَرَضًا، ونفَروا من دراسته والحَفاوة به.. واعتبَروا ذلك مَضيعةً للشَّباب وبَعثرةً لقُوى النَّاشئة.

يقولُ سلامة موسى الذي يَلهجُ بذكره بعضُ أُدبائنا: «إنَّ الذي هو كالمرض عندنا أن نكونَ على وَلاء للثَّقافة العربيَّة، فندرُسَ كتبَ العرب، ونحفظَ عباراتٍ عن ظهر قلب، كما يَفعلُ أُدباؤنا المساكينُ من أمثال المازني والرَّافعي، ونَدرُسَ ابنَ الرُّومي، ونبحثَ عن أصل المتنبِّي، ثمَّ يقولُ: وليس علينا للعرب أيُّ وَلاء، وإدمانُ الدَّرس لثقافتهم مَضيعةٌ للشَّباب وبَعْثرةٌ لقواهم».

ويُلاحظُ أنَّ سلامة موسى يُعلِنُ أنَّه ليس من العرب! وتأمَّلِ النَّصَّ تَجِدْ ذلك ظاهرًا، كما أنَّ فكرةَ الحفظ مُعلنةٌ في كلام هذا الهالك، كما

لا تزالُ معلنةً في كتابات المسلمين المخلصين المساكين الذين باعَدَت نشأتُهم بينهم وبين تراث أُمَّتهم؛ فجَهِلوه وتورَّطوا؛ فرَمَوه بما رماه به أشدُّ النَّاس عداوةً للعرب المسلمين وتراثهم.

وقارئُ التُّراث يرى أنَّ علماءنا لم يَعتبِروا الحفظَ عِلْمًا، وإنَّما المعتبَرُ هو الوعيُ المستنيرُ بحقائق المعرفة، حتى يأخُذَ الدَّارسُ ما يأخُذُ ويدَعَ ما يدَعُ، وقد ازْدَرَى علماؤنا مَن لا تستنيرُ حقائقُ المعرفة بنور عقولهم، واستصغَرُوا العاجزين عن تأصيل المعرفة والذَّوْد عنها، نَعَم لا بأسَ بالحفظ والرِّواية في باب ما يُحفظُ ويُروى كالحديث والشِّعر والخبر، ولكن يُشترطُ أن تُؤازرَ الدِّرايةُ الرِّوايةَ، وإلَّا كان هؤلاء الحفظةُ كما يقولُ أنسُ بنُ أبي إياس - وهو ممَّا يتمثَّلُ به علماؤنا:

يقولون أقوالًا ولا يَعلَمونَها
ولو قيل هاتُوا حقِّقُوا لم يُحقِّقُوا

وهذه المصادرُ القديمةُ لا تُرى فيها الفِكرةُ معزولةً عن الحوار الذي يُحيطُ بها ويُبيِّنُ كيف صدَرَت، وكيف استقامَت، وقد يحكي لك قصَّتَها مع العقول التي تداوَلَتها، وكيف قَبِلَها مَن قَبِلَها، ورفَضَها مَن رفَضَها، وكيف أجمَلَها هذا وبسَطَها ذاك، وهكذا ترى موقفًا عقليًّا خصبًا ورائعًا حولَ كلِّ مسألة في اللُّغة والفقه والأصول والعلوم الإسلاميَّة كلِّها.

وقد كان التَّيَّارُ الغالبُ في تراث علمائنا هو الإبداعَ والتَّأصيلَ.. وأعني: ما تراه واضحًا في مصادرنا من التقاط اللَّاحق فكرةً ربَّما كانت تائهةً في تراث مَن سبقَه، وربَّما قرَأَها عشراتٌ غيرُه، وما زادُوا على الانتفاع بها كما هي، ثمَّ تَجِدُ هذا اللَّاحقَ يَستخرِجُ من أعماق الفكرة الخاطفة أفكارًا وأفكارًا، وقد يُسَوِّدُ بها صُحُفًا عدَّةً، يَفتَحُ بها بابًا من أبواب المعرفة لم يُسبَق إليه، وقد تكونُ العلاقةُ عند القارئ غائمةً بين

هذا الباب الحافل والفكرة الأولى الخاطفة، وقد تَجِدُ الكاتبُ يُنبِّهُك بعد فراغ من بحثه المستفيض الممتع، ويقولُ لك: وهذا الذي قلناه مُستنبَطٌ من قول فلان كذا، ثمَّ يَذكُرُ لك نصًّا لا يزيدُ في الغالب عن سطرين، وهكذا ترى نفْسَك أمامَ معرفة جديدة اخترَعَها عقلٌ عظيمٌ، وأَبَى إلَّا أن يؤصِّلَها ويَربطَها بتُربتها، ثمَّ ترى أمانةً عِلْمِيَّةً ساميةً؛ لأنَّ هذا العالِمَ الجليلَ رأى أنَّ هذا البابَ وإن كان من نَبْعه هو، إلَّا أنَّ الذي فجَّرَه هو مقالةُ فلان هذا، وإن كانت خاطفةً طائرةً.

وهذه قيمٌ عِلْمِيَّةٌ ومنهجيَّةٌ في تراثنا جديرةٌ بأن يَقِفَ عندها كُتَّابُنا؛ ليضَعوا أيديَنا على حركة عقول المُبدعين، وترى عيونُنا كيف كانت تتحرَّكُ هذه العقولُ العظيمةُ، وهي في هذا المخاض الأعظم، وفي تلك اللَّحظات الرَّائعة.. لحظاتُ إبداع المعرفة وإخراجِها من كُمُون الغيب، وكيف كانت عينُ الرَّيِّض

المرتاض ترى الفكرةَ «الجنينيَّةَ» وهي ثاويةٌ في ضمير الفكرة وكيف شُقَّت عنها، وكيف استخرَجَتْها.

ومؤلَّفاتُ القرن الرَّابع والخامس يوشِكُ أن تكونَ كلُّها من هذا الباب الذي لا نتعلَّمُ فيه العِلمَ فحسْبُ، وإنَّما نتعلَّمُ أيضًا كيف بَنَتْ العقولُ العظيمةُ صُروحَ المعرفة، اقرَأْ كتابَ: «الخصائص» لأبي الفتح تَجِدِ البحثَ الممتعَ الذي لا تَجِدُه في غيره، وإنَّما تراه لأوَّل مرَّة وهو يَتقاطرُ من فكر هذا العالِم الجليل تقاطُرَ قطرات الضَّوء، ثمَّ تَجِدُه يقولُ لك في نهاية الباب: وهذا ما أشارَ إليه صاحبُ الكِتاب أو صاحب النَّحو، أو ما نبَّهَني إليه قولُ أبي علي كذا، ثمَّ يَذكُرُ لك نصًّا لسيبويه أو للفارسي ربَّما كان جملةً واحدةً، ولكنَّ هذه الجملةَ كانت بمثابة بِذْرة غُرِسَت في عقل خصْب، ثمَّ تعَهَّدَها الرَّجلُ بالنَّظَر والمحاورة والتَّفتيش، حتى أخرَجَ منها خبْأَها ومَرعاها.

وشواهدُ ذلك كثيرةٌ، وليس المجالُ مجالَ

استشهاد، وإنَّما المقصودُ بيانُ أنَّ الأفكارَ لم تتداوَلْها عقولُ أهل العلم للانتفاع بها فحسْب كما تتداولُ أيدينا العُملَةَ مثلًا، وإنَّما كانت تَجِدُ في قرائحهم حضَانةً خصبةً عليها عينٌ ساهرةٌ، فلا تزالُ تَربو الفكرةُ فيها، حتى تَصيرَ بابًا من أبواب المعرفة حُرَّةً فيْنانةً، وصدَقَ اللهُ إذ يقولُ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وهذا شيءٌ والحفظُ الأصَمُّ الذي يوصَفُ به التُّراثُ وحُماتُه شيءٌ آخرُ، وهدَى اللهُ أصحابَنا الذي يَتوارَثون هذه الأحكامَ الفاسدةَ كابرًا عن كابر.

وما توفيقي إلَّا بالله عليه توكَّلتُ وإليه أُنيبُ، وصلِّ اللهمَّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أصحابه ومَن تَبِعَهم بإحسان.

❋❋❋

قراءةٌ في مقدِّمات كُتب القدماء[1]

تُثيرُ مقدِّماتُ كُتُبِ أهلِ العِلْمِ في نَفْس قارئها أشياءَ، أردتُ أن أُشيرَ إلى شيء منها.

وليس النَّظَرُ في مقدِّمات الكتب واستخراجُ ما فيها شيئًا جديدًا، وإنَّما هو لونٌ من ألوان النَّظَر قديمٌ، أكثرَ منه علماؤنا، وأفرَدُوا له كُتُبًا ورسائلَ، وقد كُتِبَتْ كُتُبٌ متعدِّدةٌ حولَ مقدِّمة واحدة، كمقدِّمة القاموس التي أثارَ فيها الفيروزُآبادي مسائلَ حول نشأة اللُّغة، وتاريخ العربيَّة، وإيغالها في القِدَم، واستبحارِ مفرداتها وتراكيبها وعلومها، وأنَّها لا يحيطُ بها إلَّا نبيٌّ، إلى آخِر ما قال وروى من كلام الكَمَلَة رضوانُ الله عليهم.

وإنَّما أردتُ أن أستخلصَ من بعض المقدِّمات بعضَ الحقائق المهمَّة، والمتَّصلة بما يُثقِلُ حياتَنا

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي، العدد: ٢٣٠، صفر ١٤٠٤هـ: ٥٨.

الفكريَّةَ من خلافات حولَ التَّعرُّف على الصِّراط المستقيم الواصل بنا إلى ما يَنشُدُه كلُّ ذي عقل وقلب من أبناء هذه الأُمَّة، الذين يَجِدون أوجاعَها وآلامَها وَخْزًا في قلوبهم.

وأهمُّ هذه الحقائق أنَّ هذه المقدِّماتِ كثيرًا ما تَجِدُها دعوةً جهيرةً إلى الاجتهاد في الباب الذي كُتِبَت فيه، وأنَّ مجالَ القول فيه متَّسِعٌ جدًّا، وإمكانَ الإبداع والإضافة والتَّنوُّع فسيحٌ فسيحٌ.

وهذه حقيقةٌ مهمَّةٌ، وقِيمةٌ رفيعةٌ من قِيَم هذا التُّراث، أمَّا موطنُ الدَّعوة إلى الاجتهاد في هذه المقدِّمات فهو في هذه الفجوة الواضحة بين ما طَمَحَت إليه هِمَمُهم، ونصَبُوه في هذه المقدِّمات هدفًا وغايةً، وبين ما حقَّقُوه في بطون الكتب من دراسة وتحليل.

فالغايةُ غالبًا ما تكونُ هدفًا كبيرًا يُشبِهُ الأملَ والرَّغبةَ التي عظُمَت في تلك النُّفوس، ثمَّ يأتي

العِلْـمُ والممارسـةُ فـي داخل الكِتـاب، ويُرى قاصرًا عـن هـذه الغايـة قصـورًا لا يَخفـى.

وهـذه الفجـوةُ هـي الصَّـوتُ الجَهيرُ الـذي يدعو الخَلَفَ إلى إتمام رسالة السَّلف.

والغاياتُ التي يَستشرِفُها العلماءُ ليست انطلاقاتٍ مـن فـراغ، وإنَّمـا هي إحسـاسٌ غامضٌ بضـروب من الميادين العامـرة بحقائـق المعرفـة، والتي لمَّـا تَـزَل وراءَ الحُجُـب، وكلَّمـا طالـت الممارسـةُ لحقائـق العِلْـمِ، وطـالَ الإلـفُ، وطالـت الملازمـة كان ذلـك أَحْرى بإيجاد هذا الإحساس الغامض بهذه الحقائق الغامضة، والذي قد يَعظُمُ حتى يكونَ تطلُّعًا وتلهُّفًا وتحرُّقًا نحوها، حتى لَيوشِكُ الباحثُ في هذا اللَّون أن يَلمحَ هواديَ الحقائق وهي تُومِضُ من هذا الغيب، وتوشِكُ كلماتُ أهل هذه الطَّبقة أن تُومئَ إلى هذا البعض المجهـول، ولكنَّهـا إيمـاءةٌ، «كالإشـارة إلـى مكان الخبيء ليُعرَفَ» على حَدِّ عبارة عبد القاهر،

فعباراتُهم لم تدُلَّ على هذه الحقائق دلالةً قريبةً ولا بعيدةً، وإنَّما أشارَت إلى مكانها المخبوءة هي فيه؛ ليُبحثَ عنها هناك وتُستخرَجَ، وهذا هو وجهُ طموح المقدِّمات، وهذا هو الذي يَجِبُ أن يكونَ بين أعيننا، ونحن نقرأُ تراثَ أهل العِلْمِ، كما كان بين أعين سَلَفنا، وهم يَقرءُون تراثَ سَلَفِهم.

وليس بين أيدينا كتابٌ واحدٌ من كتب البلاغة والإعجاز أصابَ الهدفَ الذي رمَى إليه صاحبُه، وقدَّم فيه ما يُقنِعُ ويَقطَعُ بتحقيق الغاية التي توخَّاها، ولهذا تواتَرَت الكتبُ والجهودُ في هذين العِلْمَينِ الشَّريفين، وترَكَ كلُّ كتاب من ورائه البابَ مفتوحًا يدعو غيرَه، وإليك برهانَ هذه الدَّعوة:

أمَّا كُتُبُ البلاغة فسوف يكونُ شاهدُها أجلَّ كتابين كُتِبا فيها، وهما: «**أسرار البلاغة**»، و«**دلائل الإعجاز**».

ذكَرَ عبدُ القاهر في مقدمة «**أسرار البلاغة**» أنَّه يتوخَّى تحديدَ الأصول التي يؤسِّسُ عليها الحُكمَ

في بيان منازل الأدب والشِّعر، حتى يتبيَّنَ لدَارِسِهِ «كيف ينبغي أن يَحكُمَ في تفاضل الأقوال، إذا أرادَ أن يُقسِّمَ بينها حظوظَها من الاستحسان، ويُعدِّلَ القسمةَ بصائب القِسطاس والميزان؟»[1].

وهذه غايةٌ ليس بعدها غايةٌ في هذا الباب، فأيَّ شيء نَستشرِفُ إليه بعد العِلْم بكيفيَّة الحُكم في تفاضل الأقوال؟

والسُّؤالُ هو: هل حقَّقَ كتابُ: «**أسرار البلاغة**» هذه الغايةَ؟ مع أنَّه من أدقِّ وأحكمِ ما بين أيدينا من كُتُبٍ؛ بل هل حقَّقَ التُّراثُ البلاغيُّ والنَّقديُّ كلُّه هذه الغايةَ؟ ووضَعَ بين أيدينا الحقائقَ المستوعبةَ، والتي يؤسَّسُ عليها فَهمُ أسرار بلاغة الكلام وقياس منازله؟ أم أنَّ أهلَ العِلْمِ لا يَزالون في كَبَدٍ من هذا الشَّأن؟

والأمرُ كذلك عند غيرنا، وقد وصَفَ «رتشاردز» كفاحَ عقل أُمَّته في هذا الباب ابتداءً من كهوفهم

(١) «أسرار البلاغة»: ٢.

القديمة؛ من أمثال أفلاطون وأرسطو، وانتهاءً بالأفذاذ من بني جِلْدته؛ من أمثال كارليل وآرنولد، وذكَرَ أنَّ حصيلةَ هذا الكفاح «حقيبةٌ تكادُ تكونُ فارغةً»(١).

ولا يزالُ ميدانُ البلاغة والنَّقد يَزخَرُ بالآراء والمذاهب التي تتهالكُ ويَبتلِعُ بعضُها بعضَها، ولا يزالُ العِلمُ بكيفيَّة الحُكم في تفاضُل الأقوال وتقسيم حُظوظها بينها من الاستحسان غايةً غائمةً، نَستشرِفُ إليها كما استشرَفَ عبدُ القاهر إليها، وإن كان هو كَدَّ وثابَرَ وأَثْرَى.

أمَّا ما قاله في مقدِّمة «**دلائل الإعجاز**»، فالأمرُ فيه لا يَختلفُ عمَّا قاله في الأسرار، وإن كان في الدَّلائل يوشِكُ أن يُخَلِّصَ كلامَه لبيان وجه الإعجاز، الذي لا يكونُ إلَّا بمعرفة طبقات الكلام، والأُسُسِ التي يقومُ عليها الحُكمُ في تفاضل الأقوال، إلَّا أنَّه هنا يُتابعُ كيف يَعلو بعضُ الكلام بعضًا وتتوافَرُ فيه

(١) مقدمة مبادئ النقد الأدبي، ترجمة دكتور مصطفى بدوي.

العناصرُ التي بها يَرقَى في سُلَّم الفضيلة دَرَجًا بعد دَرَج، حتى يتجاوزَ الحدودَ التي تُطيقُها طاقاتُ البشر، وتَنقطِعَ دونها أطماعُهم، وتستوي الأقدامُ في العجز.

ويَذكُرُ عبدُ القاهر أنَّه لا يكفي في هذا أن تَنصِبَ له قياسًا، وأن تَصِفَه وصفًا مُجمَلًا؛ بل لا بُدَّ من التَّفصيل.

والمقصودُ في كتاب: «**دلائل الإعجاز**» أن تَعرِفَ كيف تَضَعُ يدَك على «الخصائص التي تَعرِضُ في نَظْم الكلام، وتَعدُّها واحدةً واحدةً، وتُسمِّيها شيئًا شيئًا»(١).

أرأيتَ الذي طمَحَت إليه هِمَّةُ الشَّيخ الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

والسُّؤالُ: هل وضَعَ اليَدَ على أسرار نَظْم القرآن الذي به أعجزَ؟ وهل عَدَّها واحدةً واحدةً؟

لا ريبَ في أنَّ كتابَ: «**دلائل الإعجاز**» ليس له كتابٌ يُزاحِمُه في تراث هذه الأُمَّة، ولكنَّ الغايةَ

---

(١) «دلائل الإعجاز»: ٣١.

أكبرُ، ومهما جَدَّ عبدُ القاهر وأصابَ في كشف أسرار الكلام وغوامضه، فالشَّيءُ الذي في سورة «قل هو الله أحد».. و«تبَّت يدا أبي لهب».. و«إنا أعطيناك الكوثر».. كالشَّيء الذي في سَرَيان النَّفْس في النَّفْس، واختلافِ اللَّيل والنَّهار، وتصريف الرِّياح والسَّحاب المسخَّر؛ لأنَّ القرآنَ وهذه الأشياءَ من مَعدِن واحد، وأين هذا ممَّا قاله الشَّيخُ الجليلُ؟

ولا يزالُ القرآنُ مُنطويًا على أسرار إعجازه، التي هي آيةُ الله فيه، كما لا يزالُ هذا الكونُ من السَّموات والأرض وما بينهما مُنطويًا على آيات الله فيه.

والذي أدرَكناه من أسرار بلاغة القرآن، كالذي أدرَكناه من أسرار الكون والنَّفْس، والسَّماء والأرض، وهو بالنِّسبة لِمَا لم نُدرِكْه بعدُ كالسُّطور الأولى من فاتحة كتاب كبير، وكلُّ خُطوة نَخطوها في هذا السَّبيل تَنكشِفُ من ورائها آمادٌ وآمادٌ، تَجعلُ الإحساسَ بالعجز أقطعَ وأقهرَ.

وليس هذا خَدْشًا للصَّرح العظيم الذي بناه عبدُ القاهر، والذي فتَحَ به آفاقًا ساميةً، ووضَعَ به أُسُسًا دقيقةً لفَهم الكلام وتذوُّق أسراره، وغوامض بنائه، وإنَّما هو حقيقةٌ أدرَكَها مَن هم أعرفُ بتراث عبد القاهر، وأنفذُ في فَهم الباب كلِّه.

فهذا أبو يعقوب السَّكَّاكي الذي كان أكبرُ همِّه أن يَصُبَّ كلَّ شيء في قاعدة، ويَجمَعَ كلَّ ما انتشَرَ في أصل، وكان له عقلٌ مُطيقٌ لما يَقصِدُ إليه، وقد نفَضَ تراثَ عبد القاهر كلمةً كلمةً، ووعاه بعقليَّة يَسطو ذكاؤها، ويَسطَعُ ضِياؤها، يقولُ بعدما مَخَضَ تراثَ الرَّجل: «ومُدرَكُ الإعجاز عندي هو الذَّوقُ»، وهذا ليس إذعانًا لقول عبد القاهر، حتى تَضَعَ اليَدَ على الخصائص وتَعُدَّها واحدةً واحدةً، وإنَّما هو شيءٌ غيرُه، بل وإحالةٌ إلى مُبْهم عانَت منه قضيَّةُ الإعجاز منذ الأجيال التي كان يُخاطِبُها حَمْدُ بنُ إبراهيم الخطَّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعانَى منه الشِّعرُ والأدبُ،

ولا يزالُ يُعاني؛ لأنَّ الإحالةَ إلى النَّفس واعتمادَ الذَّوق وحدَه هو في جوهره موقفُ حيرةٍ، يَلوذُ به النَّاظرُ حين لا يكونُ قادرًا على أن يُفصِحَ عمَّا يَجِدُ، وأن يَبينَ عن عِلَله وبواعثه، أو حين يَضيقُ به مجالُ الحُجَّة، ويَصعبُ عليه وصولُ البُرهان، كما يقولُ القاضي أبو الحسن.

ثمَّ إنَّنا إذا عُدنا إلى عبد القاهر نَفْسِه لنُبيِّنَ مدَى المطابقة بين ما أودَعَه في كتابه، وما طَمَعَ إليه في مقدِّمته، وجَدناه يُدرِكُ إدراكًا ظاهرًا قصورَ كثير من مباحثه عن الغايات التي يراها هو لهذه المباحث، وأنَّه كان كثيرًا ما يَطوي صفحةَ البحث قبلَ تمامه، ويقولُ ذلك بلفظ مبين.

والأمرُ الغريبُ أنَّها -أي المباحث العِلْمِيَّة- لا تزالُ عند الحدود التي وقَفَ بها عندها، ولم يَفتَحِ العلماءُ بعده ذلك البابَ الذي رأى هو منه أبعادَه الرَّحْبةَ.

ثـمَّ إنَّ هـذه المباحـثَ كمـا قلـتُ لا تـزالُ بيننا كذلـك علـى هـذا الحَـدِّ الـذي ترَكَه عبـدُ القاهـر، لـم نُعمِل عقولَنا في إكمالها، هذا فضلًا عن تقصيرنا في فَهم ما استخرَجَه هو؛ لأنَّ دراستَنا البلاغيَّةَ والنَّقديَّةَ لم تمتدَّ على ذات الطَّريق الذي سلَكَه الأئمَّةُ، وإنَّما تشتَّتَتْ وتفرَّقَت بها السُّبلُ.

وإليك بعضَ هذه المباحث:

قـال بعدما بسَـطَ صـورَ الكناية وأقسـامَها، وحلَّلَ شواهدَها، وأشارَ إلى ما بينها من علائقَ، على الحَدِّ الذي ترى بعضَه في كتب المتأخِّرين: «وليس لشُعَبِ هذا الأصلِ وفروعِه وأمثلتِه وصُوَرِه وطُرقِه ومسالِكه - حَدٌّ أو نهايةٌ»(١).

واضـحٌ أنَّـه لا يَقصِـدُ كثـرةَ شـواهد الكنايـة فـي الشِّـعر والأدب فحسـب؛ لأنَّ توفُّـرَ صـورهـا ليـس فـي حاجـة إلـى تنبيـه، وإنَّما يقصـدُ أيضًـا ضروبًا من

(١) «دلائل الإعجاز»: ٢٤١.

الكناية هي بمثابة شُعَب وفروع، وطرق ومسالك، غيرِ هذه الضُّروب والطُّرق والمسالك التي ذكَرَها، وهذا قاطعٌ.

والسُّؤالُ أين هي؟ ولماذا سكَتَ عنها خلَفُه؟ كما سكَتنا واكتَفَينا بترديد الصُّور التي ذُكِرَت، ولم نُجشِّم أنفُسَنا البحثَ عنها، كأنَّه يَضَعُ في أعناقنا مسئوليَّةَ استخراجها من الكلام، اقرأْ عبارةَ عبد القاهر مرَّةً ثانيةً تَجِد فيها أنَّ الرَّجلَ رأى في هذا الباب آفاقًا ممتدَّةً، التمَعَت بين عينيه واضحةً خصبةً، ولكنَّه اكتفَى بما قال، وطَوَى صُحفَه.

ودَعْ هذا، واسمَعْه يقولُ في أسرار حذف المفعول بعدما أبانَ عنه إبانةً لا نَعلَمُ فيها شيئًا أكثرَ ممَّا قال: «وليس لنتائج هذا الحذف -أعني: حذفَ المفعول- نهايةٌ، فإنَّه طريقٌ إلى ضروب من الصَّنعة، وإلى لطائف لا تُحصى»(١).

---

(١) «دلائل الإعجاز»: ١٢٥.

تأمَّل قولَه: «فإنَّه طريقٌ إلى ضروب من الصَّنعة، وإلى لطائف لا تحصى» تَجِدْه ليس إشارةً إلى كثرة شواهده في الشِّعر والكلام البليغ فحسب، وإنَّما هو تنوُّعٌ في الطُّرق والأساليب، فيه من اللَّطائف ما لا يُحصى؛ يعني معرفةً أخرى في أسرار هذا الضَّرب تُضافُ إلى ما بين أيدينا.. وأين هي؟

واسمَعْه يقولُ بعدما درَسَ مواقعَ «إنَّ» من الكلام دراسةً هي أوسعُ ممَّا جرى في كُتُبِ المتأخِّرين: «وليس الذي يَعرِضُ بسبب هذا الحرف من الدَّقائق والأمور الخفيَّة، بالشَّيء يُدرَكُ بالهُوَينا، ونحن نقتصِرُ الآن على ما ذكَرنا»[1].

وهذا واضحٌ في أنَّ وراءَ الذي قالَه في هذا الباب دقائقَ وأمورًا خفيَّةً، لا تُدرَكُ بالهُوينا، وهذا كلامٌ نفيسٌ يُدرِكُه مَن عانَى تحليلَ بناء الكلام وواجَهَته هذه الأداةُ، وأرادَ تخريجَها على الوجوه المتعارفة

(١) المرجع السابق: ٢٥٢.

فنبَتَ، فضاقَ بها وسكَتَ، وهو لا يَحسِبُ أنَّ وراءَ ما عرَفناه من معانيها وأحوالها أشياءَ وأشياءَ.

ودَعْ هذا وخُذْ قولَه بعدما استخرَجَ الذي استخرَجَه من كلمة «إنَّما» ممَّا شاعَ بعده قال: «واعلَم أنَّه ليس يكادُ ينتهي ما يَعرِضُ بسبب هذا الحَرْفِ من الدَّقائق»[1].

ولم يَذكُر أحدٌ بعده واحدةً من هذه الدَّقائق، التي قال فيها: إنَّها لا تنتهي ولا تكادُ.

وهذا كثيرٌ جدًّا في كتاب عبد القاهر، وهو صريحُ رأي عبد القاهر نَفْسه من توقُّف مباحثه، قبلَ أن تَصِلَ إلى غاياته، وأنَّها لم تَستَقْصِ كلَّ ما في أحوال الكلام وضروبه وطرقه ومسالكه.

ولو تجرَّدَ لهذا باحثٌ ذو نَفَاذ وعزم، واستقصاه وحقَّقَ القولَ فيه؛ لكان ذلك عملًا جليلًا.

وقد قلتُ: إنَّ عبارةَ عبد القاهر التي أشارَ فيها إلى

---

(١) السابق: ١٧٢.

رحابة الأبواب التي أَنْهَى فيها كلامَه دالَّةٌ على أنَّه كان يرى أبعادًا رحبةً، وصُوَرًا وطرقًا ومذاهبَ، وأنَّها كانت تتكاثرُ بين يدَيه وتتزاحمُ.

ويُمكِنُ أن يُفتَحَ لنا البابُ الذي رأى منه هذه الرَّحابةَ وهذه الكثرةَ، وذلك إذا مضَيْنا على طريقه الذي أسَّسَ عليه عِلْمَه، وهو استقصاءُ كلام العرب، ودَعْك من هذه الهَرطقة التي تعدُّه تلميذًا لأرسطو، فليس لها دليلٌ واحدٌ مُقنِعٌ.

أقولُ: إنَّ طريقَه الذي أسَّسَ عليه عِلْمَه هو استقصاءُ كلام العرب، واستخراجُ الطُّرق والأساليب والضُّروب، وتأسيسُ الأقسام على هذا الواقع، الذي جَرَت به ألسنةُ أهل الطَّبع، وهذا هو الذي تكاثَرَ بين يدي عبد القاهر، وأَثْرَى به أبوابَه، وأشار إلى من بعده بمواصلة النَّظَر فيه، ثمَّ هو يتكاثرُ ويتنوَّعُ، ويتغيَّرُ بتغيُّر الأحوال والأزمان، والثَّقافات وأطوار الحضارة، وغيرِ ذلك ممَّا تتنوَّعُ به اهتماماتُ النُّفوس، ومَغازيها

في مَبانيها، وبذلك يتواصَلُ النَّظَرُ، ويتجدَّدُ على أساس من واقع اللِّسان وأدبه، وليس غيرُ.

ثمَّ إنَّ تصنيفَ ومُدَارسَةَ هذه الطُّرق والضُّروب واللَّطائف ليست ممَّا يؤخَذُ بالهُوينا كما يقولُ، وإنَّما يَحتشِدُ لها مَن يصبرُ ويُثابرُ، ويَعرِفُ كيف يُعطي للحقيقة حقَّها من الصَّبر والصِّدق، والتَّدبُّر، والمعاودة؛ لأنَّ هذا تأسيسٌ لمعارفَ، وليس لغوًا تجري به الألسنةُ الثَّرثارةُ الفارغةُ، التي ضَلَّت حقائقَ المعرفة، وحُبِّب إليها العبثُ واللَّغوُ والطَّعنُ في الكَمَلَة من علماء الأُمَّة، واستمْرَأَت ذلك وسمَّته عِلْمًا أو تجديدًا للعِلْمِ، وراجَ ذلك ويَروجُ، وأخَذَه ويأخُذُه الصَّغيرُ عن الكبير، كلُّ ذلك في غَيبة الوعي المُستنير.

❋❋❋

Mashykhat Al-Azhar
Al-Azhar's Senior Scholars Council
Islamic Culture Books Series
No.: (20)



Features and Insights

By

Muhammad Abu Mousa
Member
of Al-Azhar Senior Scholars Council

